تجليات النوستالجيا في رواية "قشتمر"

لنجيب محفوظ

إعـداد

دكتور/ مُحَمَّد عَطَا مُحَمَّد أَحْمَد

مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بجرجا

جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥م

تجليات النوستالجيا في رواية "قشتمر" لنجيب محفوظ

محمد عطا محمد أحمد
قسم الأدب والنقد - كلية اللغة العربية بجرجا - جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني:
mohammedahmed2359.el@azhar.edu.eg

الملخص:

تناول هذا البحث النوستالجيا في رواية "قشتمر" للأديب نجيب محفوظ، ودفعني لدراسة هذا الموضوع تجلّي ظاهرة النوستالجيا بأنماطها المختلفة في الرواية، ويهدف هذا البحث إلىٰ الكشف عن بواعث وتجليات النوستالجيا في الرواية.

واعتمدتُ في هذه الدراسة علىٰ المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج النفسي، ووقع اختياري علىٰ هذين المنهجين؛ لأستطيع مِن خلالهما إبراز بواعث وتجليات النوستالجيا في رواية "قشتمر".

وجاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات، تناولت في المقدمة أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، والهدف منه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطة الدراسة، وبَينتُ في التمهيد مفهوم النوستالجيا، وبواعثها، والفرق بينها وبين الحنين، وتحدثت -بإيجاز- عن نجيب محفوظ، وذكرت ملخصًا للرواية، وتناولت في المبحث الأول نوستالجيا الشخصيات، وفي المبحث الثاني نوستالجيا المكان، وفي المبحث الثالث نوستالجيا الزمان، وجاءت الخاتمة مشتملة علىٰ أبرز النتائج.

وتوصلت مِن خلال هذا البحث إلى عدة نتائج أبرزها: شكَّلت النوستالجيا ملاذًا نفسيًا لجأت إليه شخصيات الرواية هربًا من قسوة الواقع ومرارته، التقاطع بين أنماط النوستالجيا المختلفة حيث تداخلت في بعض النصوص نوستالجيا الشخصيات مع المكان والزمان، تنوع أنماط النوستالجيا في الرواية بين الفردية والجماعية.

الكلمات المفتاحية:

تجليات، النوستالجيا، قشتمر، نجيب محفوظ

Manifestations of Nostalgia in Naguib Mahfouz's novel "Qushtumur"

Mohamed Atta Mohamed Ahmed

Department of Literature and Criticism, Faculty of Arabic Language for Boys, Girga, Al-Azhar University, Egypt.

Email: ***mohammedahmed2359.el@azhar.edu.eg***

Abstract

This research examines nostalgia in the novel "Qushtumur" by the writer Naguib Mahfouz. The motivation behind choosing this topic stems from the evident manifestations of nostalgia in its various forms throughout the novel. The study aims to uncover the causes and manifestations of nostalgia in novel "Qushtumur".

The research adopts both the descriptive-analytical method and the psychological approach, chosen to facilitate the exploration of the roots and appearances of nostalgia within the novel.

In this study, I relied on descriptive-analytical method and the psychological approach. I chose these two approaches to explore the motives and manifestations of nostalgia in the novel "Qushtumur"

The research consists of an introduction, a preface, three chapters, a conclusion, an index of sources and references, and an index of topics.

The introduction outlines the reasons for choosing the topic, its importance, its purpose, previous studies, the research methodology, and the study plan.The preface defines the concept of nostalgia, its causes, and the distinction between nostalgia and longing, followed by a brief overview of Naguib Mahfouz and a summary of the novel. The first chapter analyzes character-based nostalgia, the second explores spatial nostalgia, and the third investigates temporal nostalgia. The conclusion summarizes the most important findings and recommendations.

I reached in this research to several key findings, most notably: Naguib Mahfouz used nostalgia as a psychological refuge for the novel's characters to escape the hardness and bitterness of reality, the interaction between different types of nostalgia, where in some texts the characters' nostalgia overlapped with place and time, and the types of nostalgia in the novel varied between individual and collective.

Keywords:

Manifestations, Nostalgia, Qushtumur, Naguib Mahfouz.

المقدمة

الحمد لله كما هو أهله، وله الشكر علىٰ عطائه ومنّه، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد النَّبي الكريم، وصفوة خلق الله أجمعين، وعلىٰ آله وصحبه الطاهرين.

أما بعد،،،،

فإنَّ النوستالجيا من المصطلحات الأدبية التي شغلت باحثي الأدب في العصر الحديث؛ وهو مصطلح أجنبي يرادفه الحنين في العربية، بيد أنَّ كثيرًا من أدباء العربية في العصر الحديث آثروا استخدام مصطلح النوستالجيا كونه أكثر شمولية من الحنين، وقد لفت انتباهي عند قراءة رواية "قشتمر" إصرار الراوي علىٰ إظهار النوستالجيا الّتي تنتاب شخصيات الرواية، ومن هنا كان اختياري هذا الموضوع سائلا المولىٰ ﷻ التوفيق والسداد.

أسباب اختيار الموضوع:

دفعني لاختيار هذا الموضوع عدة أمور منها:

- منزلة نجيب محفوظ العالية، وثراء أعماله الروائية.
- الحضور البارز للنوستالجيا في الرواية.
- قدرة نجيب محفوظ علىٰ توظيف النوستالجيا جماليًا وفنيًا.
- عدم وجود دراسة عن النوستالجيا في رواية "قشتمر".

الهدف من البحث:

يهدف هذا البحث إلىٰ الكشف عن مفهوم النوستالجيا، وتجلياتها في رواية "قشتمر"، ودورها في تشكيل بنائها الفني.

إشكالية البحث:

- ما المقصود بالنوستالجيا؟ وما بواعثها؟ وما الفرق بينها وبين الحنين؟
- ما دور النوستالجيا في البناء الفني للرواية؟

- كيف تجلت النوستالجيا في رواية قشتمر؟

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات الأدبية التي تناولت النوستالجيا في الأدب العربي، ومِن هذه الدراسات:

- **النوستالجيا الشعرية بين الأنا والآخر في ديوان (هذه الأنثى وطن، لأسماء الجنوبي)** للدكتور/ عبد الملك بن عبد العزيز آل الشيخ بحث منشور في مجلة كلية دار العلوم- جامعة الفيوم- العدد ٥٥- يناير ٢٠١٩ م.

- **النوستالجيا في الرواية العربية المعاصرة رواية "هنا ترقد الغاوية ١ للروائي اللبناني محمد إقبال حرب أنموذجًا"** للدكتورة/ ميادة أنور الصعيدي بحث منشور في مجلة دراسات معاصرة- جامعة تيسمسيلت- الجزائر -العدد الثاني- المجلد السادس- ٢٠٢٢ م.

- **"النوستالجيا وتجلياتها في التجربة الشعرية للشعراء المنفيين في العصر الزنكي والأيوبي: ابن عنين نموذجًا"** للدكتورة/ وفاء بنت ميّاح بن سالم العنزي -بحث منشور في مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية- المملكة العربية السعودية-العدد ٤٠- عام ٢٠٢٤ م.

- **ملامح النوستالجيا في شعر أسامة بن منقذ** للدكتورة/ هبة مصطفىٰ جابر، والدكتور/ علي عودة السواعير بحث منشور في مجلة جامعة تبوك للعلوم الإنسانية والاجتماعية- العدد الأول- المجلد الرابع- عام ٢٠٢٤ م.

إلىٰ غير ذلك من الدراسات المتعلقة بالنوستالجيا.

وهناك عدة دراسات قامت حول رواية "قشتمر" لنجيب محفوظ ومِن هذه الدراسات:

- **ملامح الشاعر بريشة القصّاص في رواية قشتمر** لنجيب محفوظ للدكتورة/ إخلاص فخري بحث منشور في مركز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصية -جامعة القاهرة- الجزء العاشر- عام ١٩٩٠ م.

• **قراءة في الرواية الثالثة والثلاثين لنجيب محفوظ قشتمر** للناقد/ نجيب العوفي بحث منشور في مجلة آفاق الصادرة عن اتحاد كتّاب المغرب العربي- العدد الثاني- عام ١٩٩٠ م.

• **الأدب والثورة دراسة في رواية قشتمر لنجيب محفوظ** كتاب للدكتور/ جمال الجزيري –دار كتابات للنشر الإلكتروني- عام ٢٠١٥ م.

• **تشكيلات المكان في رواية "قشتمر" لنجيب محفوظ البناء والوظيفة** للدكتور/ قطاف جلول والدكتور/ عمار بن بتيش -بحث منشور في المجلة العربية للدراسات اللغوية والأدبية والنقدية اللسانية المعاصرة-العدد الثاني- المجلد الأول- عام ٢٠٢١م.

ولم أجد –فيما علمت– دراسة تناولت النوستالجيا في رواية "قشتمر".

منهج البحث:

اعتمدت في هذه الدراسة علىٰ المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج النفسي، ووقع اختياري علىٰ هذين المنهجين؛ لأستطيع مِن خلالهما إبراز بواعث وتجليات النوستالجيا في رواية "قشتمر".

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أنْ يُقسّم إلىٰ مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة يليها فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

المقدمة: تناولت فيها أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، والهدف منه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث وخطته.

التمهيد: بَيَّنتُ فيه معنىٰ النوستالجيا، وبواعثها، والفرق بينها وبين الحنين، وتحدثت فيه بإيجاز عن نجيب محفوظ، وذكرت ملخص رواية "قشتمر".

المبحث الأول: نوستالجيا الشخصيات.

المبحث الثاني: نوستالجيا المكان.

المبحث الثالث: نوستالجيا الزمان.

الخاتمة: وتحوي أبرز نتائج البحث.

فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

التمهيد

المحور الأول: النوستالجيا: المفهوم والبواعث:

أولا: مفهوم النوستالجيا:

برزت عناية علم النفس الحديث بالأعمال الأدبية منذ سيجموند فرويد الَّذي يرىٰ أنَّ العمل الأدبي: "موقع أثري له طبقات متراكمة من الدلالة ولا بد للتالي من كشف غوامضه وأسراره"(١)

وظلت دراسات علماء النفس تولي الأدب عناية كبيرة حتىٰ أصبح المنهج النفسي في تحليل الأدب منهجًا معتبرًا استخدمه الباحثون في دراسة الإبداعات الأدبية القديمة والحديثة، ومنذ عصر النهضة العربية بادر النقاد إلىٰ استثمار طاقاته في الأدب العربي كالعقاد وطه حسين والنويهي وغيرهم، فأنتجوا عددًا من الدراسات القيّمة، خاصة بعد انحسار بعض المقولات القديمة التي رأت الإبداع استجابة لعُقد مرضية، لكن: "بقيت الأرضية الفرويدية (اللاوعي) قائمة كمركز الاهتمام، وفكرة اللاوعي تقوم علىٰ مقولة أنَّ المرء يبني واقعه في علاقة أساسية مع رغباته المكبوتة ومخاوفه"(٢)

ويظل موضوع الحنين إلىٰ الماضي سمة إنسانية لها بواعثها ومبرراتها النفسية، فقد يختزن الماضي ذكريات ومواقف مبهجة يعود إليها اللاوعي لمقاومة قسوة الواقع، ويشعر المرء بالراحة حين يسترجعها، وقد تكون مواقف أليمة وتجارب قاسية مثل فقد الأعزاء تستعيدها الذاكرة فيتنفسها اللاوعي علىٰ سبيل الاستشفاء، فالعودة إلىٰ الماضي تعني العودة إلىٰ "زمن غني الدلالات شائك ومعقد؛ لأنه جمع

---

(١) دليل الناقد الأدبي للدكتور/ ميجان الرويلي والدكتور/ سعد البازعي ص ٣٣٢ –طبعة المركز الثقافي العربي– المغرب– الطبعة الثالثة– عام ٢٠٠٢ م.

(٢) السابق ص ٣٣٣.

بين الشعور واللاشعور بنوعيه الجمعي والفردي يدخل تحت نطاقه تاريخ وتاريخ المجموع"[١]

والحنين في اللغة العربية يُرادف النوستالجيا **"Nostalgia"** في اللغة الإنجليزية، ويُعد مصطلح النوستالجيا من المصطلحات المشتركة بين عدة علوم ففي علم الطب قديما كانت النوستالجيا وصفًا لحالة مرضية تنتاب الشخص البعيد عن وطنه، لذا تجد تعريفها في المورد الحديث بأنها: توق غير سوي للعودة إلىٰ الماضي أو إلىٰ استعادة وضع يتعذر استرداده.[٢]

أما حديثًا فلا تُعد النوستالجيا عقدة نفسية مرضية، بل هي ارتباط بالذكريات؛ لذا أُطلقت في الطب النفسي الحديث علىٰ: الحنين للوطن، والشوق للماضي والحنين إلىٰ وضع هيهات أن يعود.[٣]

ويرى علماء النفس أنَّ كل من يحن إلىٰ الماضي مفضلًا إياه علىٰ الحاضر يكون ذو شخصية يغلب عليها طابع الحزن، فالحنين مرتبط وجوديًا بالحزن وما يدور في فلكه من انطواء واستغراق في الذات وشعور بالفقد... إنَّ المتعلقين بالماضي، أصحاب المزاج الحزين يختلفون عن ذوي الطاقة السلبية، ذلك أنَّ نظراتهم للأشياء تتسم بالهدوء والرومانسية لذلك فهم مغرقون في الخيال وما يشبه أحلام اليقظة.[٤]

---

(١) دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان للدكتور/ قادة عقاق ص ٣٨١ –طبعة اتحاد الكتّاب العرب– دمشق– عام ٢٠٠١ م.

(٢) يُنظر المورد الحديث قاموس إنكليزي عربي حديث لمنير البعلبكي، والدكتور/ رمزي منير البعلبكي ص ٧٧٧ –طبعة دار العلم للملايين– لبنان–.

(٣) يُنظر معجم مصطلحات الطب النفسي إعداد الدكتور/ لطفي الشربيني ص ١٢٣ – طبعة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي– دون ذكر رقم الطبعة وسنة الطباعة.

(٤) يُنظر نوستالجيا للدكتور/ عبد الرحمن النملة مقال منشور في مجلة فكر –العدد ٣٠– يناير ٢٠٢١ م.

أما النُوستالجيا في الأدب فقد عرّفتها الدكتورة/ هبة مصطفىٰ جابر، والدكتور/ علي عودة السواعير بأنها: "تعبير عن المخزون الذهني الَّذي يُشكّل حيزًا عميقًا في ذهن الشاعر، وينطلق في أغوار نفسه المتغلغلة حتىٰ يستبطن المكنون من المشاعر تجاه الأشياء من حوله"(١)

ويمكن أنْ تُعرف النوستالجيا بأنها: "الحنين الجارف إلىٰ شخصٍ أو مكانٍ أو زمانٍ في صورته المثالية هربًا من الواقع الأليم"

ثانيًا: بواعث النوستالجيا:

تتنوع بواعث النوستالجيا بتنوع التجارب الإنسانية التي يعيشها الأشخاص، بيد أنها لا تخرج في مجملها عمَّا يأتي:

- **الغربة:** تُعد الغربة من أبرز بواعث النوستالجيا، فحينما تحول المسافات بين الشخص وموطنه الأصلي يدهمه الحنين إلىٰ وطنه أو بلده أو بيته فيجد نفسه مدفوعًا إلىٰ تذكر هذه الأمكنة.
- **التهميش:** عندما يتعرض فرد أو جماعة إلىٰ التهميش من المركز أو حتىٰ عندما يتحول المركز إلىٰ هامش يجد نفسه يشعر بالحنين إلىٰ الزمن الماضي هربًا من الواقع الجديد.
- **فقد الأحباب:** عندما يحال بين المرء وبين من يُحب بالفراق أو الموت ويتوق الإنسان إلىٰ مَن فارقه -سواء كان فراقًا مؤقتًا أو فراقًا أبديًا- لا يجد سوىٰ ذكرياته

(١) ملامح النوستالجيا في شعر أسامة بن منقذ للدكتورة/ هبة مصطفىٰ جابر، والدكتور/ علي عودة السواعير ص ٥٦٨ بحث منشور في مجلة جامعة تبوك للعلوم الإنسانية والاجتماعية- العدد الأول- المجلد الرابع- عام ٢٠٢٤ م.

الجميلة مع هذا الشخص، وربما اصطنع ذكريات من وحي خياله؛ فيتزود من اجتراره هذه الذكريات ما يخفف به ألم الفراق وقسوته.

• **التغير الذي يطرأ على الإنسان:** حينما تتغير صفات الإنسان أو تتبدل ملامحه، ويظهر في صورة غير التي أحبها الأشخاص الآخرون، يستدعي هذا التغيير حنينًا إلىٰ صورته الأولىٰ التي استقرت في الوجدان.

• **تغير الأماكن وتبدل ملامحها:** عندما تتغير الأماكن عن صورتها التي أحبها عليها الإنسان، وارتبط بها وجدانه وتتحول إلىٰ رموز ينبعث الحنين إلىٰ صورتها التي أحبها عليها.

• **الحسرة على الماضي:** لكل إنسانٍ ماضٍ عاشه وتكونت ذاكرته من أحداثه، وكلما مرَّ عمر الإنسان وجد في نفسه شوقًا إلىٰ زمانه الماضي خاصة إذا كان هذا الماضي جميلا أو غلب عليه الجمال، فيرجع الإنسان بذاكرته إلىٰ الوراء مجترًا أحداثه ووقائعه في صورة مثالية.

• **الهروب من الواقع المرير:** حينما تقسو الحياة علىٰ الإنسان وتشتد وطأتها عليه، ولا يجد مهربًا من واقعه المرير يجنح إلىٰ أي حيلة قد تخفف عنه ما يعانيه من قسوة، وربما لا يجد الإنسان أمامه سوىٰ الشوق والحنين إلىٰ واقع عاشه أو ربما تخيله فيجد في ذلك سَلوة عمَّا ألمَّ به، فيعيش مع هذه الذكريات أو المتخيلات ردحًا من الزمان.

ثالثًا: الفرق بين النوستالجيا والحنين:

يتشابك مفهوم النوستالجيا والحنين بصورة كبيرة ومع ذلك توجد عدة فروق يمكن إجمالها فيما يأتي:

- قد تكون النوستالجيا شعورًا فرديًا أو جماعيًا، أمَّا الحنين فهو شعور فردي يعكس تجربة فردية.[١]
- تعد النوستالجيا حالة نفسية متقدمة فهي تستدعي الماضي في صورته الأصلية أو في صورة مثالية تخلو من المنغصات والشوائب، أمَّا الحنين فهو شعور فطري إلىٰ الأشياء بصورتها الحقيقية.[٢]
- النوستالجيا شعور قوي دائم أو طويل الأمد، أمَّا الحنين فهو شعور مؤقت.
- النوستالجيا ليست مصحوبة بالحزن علىٰ الدوام فقد تأتي مصحوبة بالفرح، أمَّا الحنين فهو مصحوب بالحزن علىٰ ما انقضىٰ مع عدم القدرة علىٰ العودة إليه.

يتضح من خلال هذه الفروق أنَّ النوستالجيا أعم وأشمل من الحنين، وبذلك تكون أكثر فاعلية في دراسة بعض النصوص، وهذا ما دفعني لاستخدام مصطلح النوستالجيا في هذا البحث.

(١) يُنظر نوستالجيا للدكتور/ عبد الرحمن النملة.

(٢) يُنظر النوستالجيا الأندلسية: مقاربة في حفريات المصطلح وتمظهرات الأنا في مرآة ماضيها للدكتور/ مكي سعد الله ص ٩١ –مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية- المركز العربي للأبحاث- العدد ٤٨- المجلد ١٢- ٢٠٢٤ م.

المحور الثاني: نبذة عن نجيب محفوظ:

أولا: اسمه ومولده ونشأته:

حينما تُذكر الرواية العربية يبرز اسم الروائي الكبير الَّذي ارتقىٰ بالرواية العربية حتىٰ وصل بها إلىٰ مصاف العالمية "نجيب محفوظ بن عبد العزيز إبراهيم أحمد الباشا"(١)

وُلد نجيب محفوظ عام ١٩١١ م في حي الجمالية بالقاهرة، فعرف تفاصيل الحياة الشعبية التي انعكست علىٰ أدبه، ومن حي الجمالية أخذ أسماء كثير من رواياته مثل "خان الخليلي" و "زقاق المدق" و "بين القصرين" و "قصر الشوق" و "السكرية"، كما أخذ منه شخصية الفتوة، ومن حي الجمالية انتقل نجيب محفوظ إلىٰ العباسية، والتقىٰ هناك بأصدقائه وأبناء جيله ومنهم عبد الحميد جودة السحّار، وإحسان عبد القدوس وغيرهما.(٢)

نشأ نجيب محفوظ في عصر مليء بالاضطرابات والثورات فشهد أحداث ثورة ١٩١٩م وهو في المدرسة الابتدائية، وخرجت المدرسة في مظاهرة كبيرة، وفي المظاهرة رأىٰ أول مرة في حياته الرصاص يجرح ويصرع الأبرياء، وانضم نجيب إلىٰ حزب الوفد عام ١٩٢٥م، وتفتحت أذناه علىٰ أصوات الشيخ محمد عبده، وأحمد لطفي السيد، وعلي عبد الرازق ومصطفىٰ عبد الرازق وغيرهم، وحصل علىٰ شهادة البكالوريا عام ١٩٣٠ م، والتحق بكلية الآداب قسم الفلسفة وتخرج فيها عام

---

(١) صفحات من مذكرات نجيب محفوظ لرجاء النقاش ص ١٩–طبعة دار الشروق- ١٩٩٧ م.

(٢) يُنظر في حب نجيب محفوظ لرجاء النقاش ص ١٧ وما بعدها بتصرف –طبعة دار الشروق- الطبعة الأولىٰ ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م.

١٩٣٤م، وتنوع موقع عمله بين وزارة الأوقاف حيث عمل مفتشًا ووزارة الثقافة حيث قام بعدة وظائف منها عمله مستشارًا أدبيًا للسينما.(١)

ولم يتعجل نجيب محفوظ الزواج وبناء أسرة له فقد تزوج بعد أن تجاوز الأربعين من عمره، وكان دافعه الأساس في هذا الأمر ألا يربك حياته في مراحلها الأولىٰ بمسئوليات قد تؤدي إلىٰ تعطيله عن إعطاء أدبه ما يحتاج إليه من تفرغ واهتمام.(٢)

ثانيًا: كتاباته، ومنزلته الأدبية:

بدأ محفوظ كتاباته الأدبية بكتابة المقال ثم تنوعت كتاباته بين الرواية والقصة والأقصوصة كما كتب البحث، وترجم كتاب مصر القديمة عن الإنجليزية، وتأهب أن يكتب تاريخ مصر، وكتب أول رواية تاريخية وهي "عبث الأقدار" ودفعه حبه مواكبة الحركة الفكرية والقومية في مصر إلىٰ كتابة الرواية الفنية التي تعالج الواقع المصري وتناقش قضاياه.(٣)

وتوالت أعمال نجيب محفوظ الأدبية وأصبح له جمهوره العريض ومن أشهر أعماله: "القاهرة الجديدة" ١٩٤٥ م، و "خان الخليلي" ١٩٤٦ م، و "زقاق المدق" ١٩٤٧ م، و "السراب" ١٩٤٨ م، و "الثلاثية" وتتابعت أعماله بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ م فصدرت له "أولاد حارتنا" ١٩٥٩ م، و "الشحاذ" ١٩٦٥ م، و "الكرنك" ١٩٧٤ م، و "قلب الليل" ١٩٧٥ م، و "الحرافيش" ١٩٧٧ م، حتىٰ كانت رواية قشتمر ١٩٨٩ م، وصدرت أعماله الروائية في طبعات عدة، واشتهرت

---

(١) يُنظر الفن القصصي بين جيلي طه حسين ونجيب محفوظ للدكتور يوسف نوفل ص ٩٧، ٩٨ بتصرف –طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب– ١٩٨٨ م.

(٢) يُنظر في حب نجيب محفوظ لرجاء النقاش ص ٢٢.

(٣) يُنظر الفن القصصي بين جيلي طه حسين ونجيب محفوظ للدكتور يوسف نوفل ص ١٠٢ بتصرف.

أعماله بشكل كبير وتحول كثير منها إلىٰ أعمال سينمائية وإذاعية وتلفزيونية فشاهدها الملايين من البشر حول العالم.(١)

وكان نجيب محفوظ يحرص علىٰ الحوار الفصيح في أعماله، ويندر لديه استعمال الكلمات العامية أو الأجنبية في الحوار.(٢)

وبلغ نجيب محفوظ منزلة سامقة في سماء الأدب العربي والعالمي، ولعله لم يصل أديب عربي في العصر الحديث إلىٰ ما وصل إليه نجيب محفوظ، وتوج مجهوده الكبير بحصوله علىٰ جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨ م.

وبعد حصوله علىٰ الجائزة أصبح الاهتمام واضحًا وواسعًا بترجمة أعماله إلىٰ اللغات الأجنبية المختلفة.(٣)

وكثُرت الدراسات الأدبية والنقدية حول نتاج نجيب محفوظ الأدبي كثرة بالغة، وما زال نتاجه حتىٰ اليوم محل عناية الباحثين والنقاد.

ثالثًا: وفاته:

رحل نجيب محفوظ عن عالمنا بعدما أنهكه المرض أواخر حياته وكان ذلك في الثلاثين من أغسطس عام ٢٠٠٦ م، وشيع جنازته رجال الدولة المصرية وعلىٰ رأسهم الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك.(٤)

---

(١) يُنظر صورة المجتمع المصري في أدب نجيب محفوظ بين الواقع والخيال للدكتور/ يحيىٰ القفاص ص ٢٣، ٢٤– طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب– عام ٢٠١٧ م.

(٢) يُنظر الفن القصصي بين جيلي طه حسين ونجيب محفوظ للدكتور يوسف نوفل ص ١٠٧.

(٣) يُنظر صورة المجتمع المصري في أدب نجيب محفوظ بين الواقع والخيال للدكتور/ يحيىٰ القفاص ص ٢٥.

(٤) يُنظر السابق ص ٢٨.

المحور الثالث: ملخص رواية "قشتمر": (١)

صدرت رواية قشتمر أول مرة عام ١٩٨٩ م، وحُوِّلت لاحقًا إلىٰ مسلسل تلفزيوني، وتجري أحداث الرواية فيما يقرب من سبعين عامًا من تاريخ مصر، وتدور حول خمس شخصيات رئيسة تتفاعل معها عدة شخصيات ثانوية(٢) وبدأ التعارف بين الشخصيات الرئيسة عام ١٩١٥ م في فناء مدرسة البراموني الأولية ثم أصبحوا أصدقاء، وبدأت صداقتهم تتوثق يومًا بعد يوم حتىٰ وصلت إلىٰ كمالها، واتخذوا من "قشتمر" مكانًا يقضون فيه أفضل أوقاتهم، ولكل شخصية -عدا شخصية الراوي- من هذه الشخصيات حياتها التي تشارك تفاصيلها مع بقية الشخصيات، وهذه الشخصيات هي:

١- الراوي: هو أحد سكان العباسية الغربية، يُشارك أصدقاءه حياتهم لكنه خارج الموضوع فلا يذكر شيئًا عن اسمه أو أسرته.

---

(١) **قيل إن المقهى** سُمي بهذا الاسم نسبة إلىٰ أحد وزراء المماليك. وأغلق مقهىٰ "قشتمر" منذ عام ٢٠١١ م إلىٰ أن أعاد مالكه الحياة إليه عام ٢٠٢٣ م- يُنظر إعادة إحياء مقهىٰ "قشتمر" للصحفية رضوىٰ فاروق مقال منشور بجريدة المصري اليوم - العدد ٦٨١٨ الصادر في يوم الاثنين الموافق ١٣/ ٢/ ٢٠٢٣ م.

(٢) **الشخصية الرئيسة:** هي التي تكون محور النص السردي والمحرك الرئيس للأحداث، ويختارها المؤلف فتستولي علىٰ اهتمامه الأكبر، ومن خلالها يفهم مغزىٰ التجربة القصصية ذاتها. يُنظر قراءة الرواية – مدخل إلىٰ تقنيات التفسير - روجر. ب . هينكل ترجمة د/ صلاح رزق ص ١٨٦ - طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة – الطبعة الثانية- عام ١٩٩٩ م، الشخصية الثانوية: هي التي تساعد الشخصية الرئيسة في أداء مهمتها وإبراز الحدث. يُنظر جماليات السرد في الخطاب الروائي –غسان كنفاني- د/ صبيحة عودة عزب ص ١٣٣ –طبعة دار مجدلاوي للنشر والتوزيع- عمان- الأردن- عام ٢٠٠٦ م.

٢- **صادق صفوان النادي:** أحد سكان "بين الجناين" في العباسية الغربية، يعمل والده "صفوان النادي" موظفًا بالأوقاف، ووالدته "زهرانة كريم" وهو وحيد والديه، ويُعد مثالا للإنسان الملتزم المهذب، وقد أحبَّ الثراء منذ صغره ولتحقيق ذلك اكتفىٰ بشهادة البكالوريا وقام بفتح محل للخردوات بمنطقة العباسية، ثم توسع في تجارته حتىٰ حقق مبتغاه وصار من ذوي الأملاك، وتزوج "صادق" ثلاث مرات: الأولىٰ: "إحسان" أحب الزوجات إلىٰ قلبه وأم ولديه "إبراهيم" و "صبري" وبقيت معه إلىٰ أن ماتت، الثانية: "ليلىٰ" لم تنجب لأنها عاقر، وطلقها بسبب حدتها واستغلالها، الثالثة: "سناء" أنجبت له ابنته "نهىٰ" وطلقها بسبب سوء أخلاقها.

٣- **إسماعيل قدري:** أحد سكان شارع "حسن عيد" في العباسية الغربية، يعمل والده "قدري سليمان" موظفًا بالسكك الحديدية، أنجبته والدته "فتحية عسل" بعد أربع بنات، وكان "إسماعيل" أكثر الأصدقاء تفوقًا، وهو مثال للشخصية المزدوجة التي تجمع بين الالتزام في موطن والانحلال في آخر، وكان إسماعيل يُمني نفسه أن يلتحق بكلية الحقوق بالمجان ليصبح مثل الزعيم "سعد باشا زغلول" الَّذي صار قدوة له، لكن لسوء حظه لم يحصل "إسماعيل" علىٰ المجموع الَّذي يؤهله لدراسة الحقوق بالمجان بسبب وفاة والده قبل امتحان البكالوريا بشهر، والتحق "إسماعيل" بكلية الآداب ولم يلبث أن فُصل منها لاشتراكه في إحدىٰ المظاهرات، ثم عُين موظفًا في دار الكتب، وتزوج "تفيدة هانم" وهي امرأة غنية تكبره سنًا وأنجبت له ابنه "هبة الله" وحقق "إسماعيل" حلمه بدراسة القانون من الخارج وعمل بالمحاماة وحقق نجاحًا باهرًا، وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أنَّ بعض مراحل حياة "إسماعيل قدري" تتقاطع مع حياة "نجيب محفوظ" الحقيقية، كتفوقه، ومحاولته

إجراء عملية جراحية في صغره لخادمتهم، والتحاقه بكلية الآداب، وأنَّ له أربع أخوات، وحبه حزب الوفد وانضمامه إليه.(١)

٤- **حمادة يسري الحلواني:** يقيم مع أسرته في سرايا بميدان المستشفىٰ في العباسية الشرقية، والده هو "يُسري باشا الحلواني" صاحب أكبر مصنع للحلاوة الطحينية في القُطر، وكان رجلا وطنيًا، ووالدة حمادة هي "عفيفة هانم بدر الدين" خريجة الميردي دييه، ولحمادة أخ "توفيق" وأخت "أفكار" وكانت علاقة "حمادة" بأسرته متوترة باستثناء أخته "أفكار" فقد كان أبوه يطالبه بالاهتمام بمستقبله في المصنع، وأمه لا تكف عن لومه وأخوه يسخر من كسله، بينما كان "حمادة" غامضًا لا يعرف له هدفًا، والتحق بكلية الحقوق بلا أدنىٰ رغبة فيها وإنما ليُسكت والده، ولذلك لم يتمها وانطلق في حياة السهر والمجون وورث عن أبيه مالا كثيرًا، ولم يحُل هذا الثراء بينه وبين أصدقائه، وظل يلتقي بهم في "قشتمر"، واتخذ من شقته وعوامته مقرًا لإرضاء شهواته، وحاول الزواج كأصدقائه فلم يُفلح في ذلك أيضًا إذ تزوج من إحدىٰ المحترفات ولم يلبث أن طلقها.

٥- **طاهر عبيد الأرملاوي:** يقيم مع أسرته في فيلا بمنطقة "بين السرايات" في العباسية الشرقية، ووالده هو الدكتور "عبيد باشا الأرملاوي " الَّذي يعمل مديرًا للمعامل بوزارة الصحة وكان حصل علىٰ الدكتوراه من النمسا، ووالدته "إنصاف هانم القللي" خريجة الميردي دييه وهي امرأة قارئة مثقفة، وكان والداه يؤملان أن يجعلا منه طبيب مصر الأول، ولكن "طاهرًا" استهواه الأدب، وتمضي الأيام ليلحقه والده بكلية الطب ولكنه يسقط سقوطًا مدويًا ثم ينصرف عن كلية الطب إلىٰ الأدب

(١) يُنظر صفحات من مذكرات نجيب محفوظ لرجاء النقاش ص ٢١ وما بعدها.

ويلتحق بمجلة الفكر وتزيد الفجوة بينه وبين والديه حينما يخبرهما بأنه يريد الزواج من "رئيفة" ويحتدم الصراع بينهما إثر رفض والديه هذه الزيجة لعدم ملاءمة "رئيفة" التي تعمل ممرضة، وما أشيع عنها من أنها سيئة السمعة، ويصر "طاهر" علىٰ الزواج من "رئيفة" ويترك فيلا والده ليقيم مع زوجته التي تنجب له ابنته "درية"، وتمضي الأيام، وتظهر علامات الكِبَر علىٰ رئيفة، ولا يجد "طاهر" متعته معها فيتزوج من "أنوار" تلميذته في المجلة ولكنهما لم ينسجما كثيرًا فطلقها وعاد إلىٰ زوجته "رئيفة" مرة أخرىٰ، ويحدث أن يمرض والده "عبيد باشا الأرملاوي" فيذهب إليه "طاهر" وتعود علاقته بوالديه مرة أخرىٰ.

المبحث الأول: نوستالجيا الشخصيات

تُعد الشخصية جوهر العمل الروائي، ومركز عناية الكتَّاب، حيث إنها: تلعب دورًا أساسًا في بناء الرواية، فهي مركز الأفكار ومجال المعاني التي تدور حولها الأحداث، وبدونها تصبح الرواية ضربًا من الدعاية المباشرة، والوصف التقريري، والشعارات الجوفاء الخالية من المضمون الإنساني المؤثر في حركة الأحداث، فالأفكار تحيا في الشخصية، وتأخذ طريقها إلىٰ المتلقي عبر أشخاص معينين لهم آراؤهم، واتجاهاتهم، وتقاليدهم في مجتمع معين وزمن معين.(١)

والشخصية هي واسطة العقد بين المشكّلات الأخرىٰ.(٢)

والشخصية هي إحدىٰ الأسس التي تُقاس بها جودة الرواية؛ لذا قيل إن "أساس الرواية الجيدة خلق الشخصيات ولا شيء سوىٰ ذلك "(٣)

ولما كانت شخصيات الرواية تستمد أفكارها، وتقاليدها وصفاتها من الواقع، بل إنَّ أول ما يضمن مصداقية الكاتب هو انتماء شخصياته إلىٰ واقع الكاتب وقضاياه(٤) ذلك الواقع الّذي يقتضي أنْ يكون لدىٰ الإنسان علاقات بأفراد مجتمعه، وهذه

---

(١) يُنظر بناء الرواية دراسة في الرواية المصرية للدكتور/ عبد الفتاح عثمان ص ١٠٧ – طبعة مكتبة الشباب–القاهرة– عام ١٩٨٢ م.

(٢) ينظر في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد للدكتور/ عبد الملك مرتاض ص ١٠٣ –طبعة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت– ١٩٩٨ م.

(٣) نظرية الرواية في الأدب الإنجليزي الحديث – مجموعة نقاد – ترجمة الدكتور/ أنجيل بطرس سمعان ص ١٧٣ –طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب– عام ١٩٩٤ م.

(٤) ينظر جماليات النص السردي رؤية نقدية في أعمال أمين يوسف غراب للدكتور/ عادل نيل ص ١٣٥ –طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب– عام ٢٠١٥ م.

العلاقات تتباين حبًا وكُرهًا حسب أحداث الحياة، وكثيرًا ما تنشأ العوائق التي تحول بين الأحباب فيضطر الإنسان إلىٰ أنْ يفترق عن أهله وأحبابه فراقًا مؤقتًا كالسفر، أو فراقًا دائما بموت هؤلاء الأهل والأحباب أو استحالة رؤيتهم بسبب ظروف قهرية، وربما يكون الإنسان مقيمًا مع أحبابه ولكنها إقامة فاترة لا يشعر فيها بالراحة النفسية، وفي مختلف الحالات لا يجد الإنسان بُدًا من استرجاع تلك الذكريات الجميلة بينه وبين أحبابه وأهله، وحين تستدعي الذاكرة علاقاتها مع تلك الشخصيات التي فارقتها تتولد نوستالجيا الشخصيات، وفي رواية "قشتمر" استطاع نجيب محفوظ إبراز نوستالجيا الشخصيات في عدة صور سيكون حديثي عنها من خلال المحاور الآتية:

المحور الأول: نوستالجيا الزوجة:

احتوت "قشتمر" علىٰ صورتين بارزتين للحنين إلىٰ الزوجة، وهما: حنين "صادق" إلىٰ زوجته "إحسان" ، وحنين "إسماعيل" إلىٰ زوجته "تفيدة".

الصورة الأولى: حنين "صادق" إلى زوجته "إحسان":

يُعد حنين "صادق" إلىٰ زوجته "إحسان" أبرز صور نوستالجيا العلاقة الزوجية في رواية "قشتمر" فـ "صادق" دائم الحنين إلىٰ زوجته "إحسان" في صورتها الأولىٰ، وهذا الحنين يرتكز في الأساس علىٰ الاشتياق الجسدي، ولا يقتصر علىٰ استعادة الذكريات الجميلة فقط، فهو يحن إلىٰ "إحسان" حينما كانت في قمة عطائها وشبابها، وجسدها المفعم بالحيوية: "ممتلئة الجسم في رشاقة، ووجهها مستدير مائل للبياض وشعرها كستنائي غزير، وعيناها عسليتان صافيتان، وثغرها غاية في الدقة، يوصف عادة بأنه خاتم سليمان"[1]

(١) قشتمر لنجيب محفوظ ص ٣٧ –طبعة دار الشروق– الطبعة الأولىٰ– عام ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م.

وكانت "إحسان" في صورتها هذه تلبي رغبات زوجها الجسدية علىٰ أكمل وجه، لكنها بعد أنْ أنجبت طفلهما الأول صارت لا تستطيع ذلك، وأثَّر ذلك في "صادق" تأثيرًا سلبيًا كبيرًا جعله يعيش في حزن وألَمٍ، وبدا ذلك علىٰ ملامحه حتىٰ أدرك رفاقه الأربعة ذلك التغيير، يقول الراوي: "ولما جاء صادق في ميعاده المتأخر نسبيًّا أحاطت به الأعين متفحصة، ولاحظ هو ذلك ولكنه تجاهله، وقال حمادة: فيك شيء تغير!

فتنهد واستمرَّ في صمته، وتوالت الأسئلة عن الصحة والأحوال حتىٰ قال: إحسان لم تعد كما كانت.

شد انتباهنا بقوة، تستحوذ الأسرار العائلية علينا أحيانًا بأشد ما تستحوذ المذابح الدكتاتورية أو الأفكار الفلسفية.. وواصل صادق حديثه قائلًا: إنها اليوم أم مائة بالمائة"[1]

يكشف "صادق" في النص السابق عن معاناته العميقة التي تبدت معالمها علىٰ قسمات وجهه فأبصرها رفاقه، وتتمحور معاناة "صادق" حول التغير الَّذي طرأ علىٰ زوجته "إحسان" حيث صارت غير قادرة علىٰ تلبية رغباته الجسدية بالكفاءة والحماس السابقين، مما شكل نقطة انعطافٍ حاد في علاقته بزوجته التي لم تستطع أن توازن بين أمومتها وواجباتها الزوجية.

ويستمر "صادق" في سرد معاناته لأصدقائه الذين بدأوا التفاعل معه، وربما بدأوا يفهمون بعض معاناته، يقول الراوي علىٰ لسان "صادق":

– مع واجبات البيت، فلا شيء يهم إلا الصغير.

(١) الرواية ص ٦٧ .

ونظر في وجوهنا بوجهٍ جادٍّ ثم قال: وأنا؟! حسبت أن الأمومة تبدأ هكذا ثم يرجع كل شيءٍ إلىٰ أصله، ولكن انتظاري نفد.

فقال طاهر عبيد: الوقت يتسع لكل شيء.

فتنهد صادق قائلًا: كانت شعلةً فأصبحت رمادًا"[1]

يؤكد "صادق" في النص السابق علة التحول الَّذي طرأ علىٰ زوجته "إحسان" وجعلها غير قادرة علىٰ تلبية رغباته الجسدية حيث أصبحت أمًا وصارت مسئولة عن طفلهما، وأدىٰ انشغالها بهذا الطفل إلىٰ فتور علاقتها الجسدية بزوجها، مما ينذر بصراع متزايد بين زوج تواق للعلاقة الجسدية وزوجة مثقلة بمتطلبات الأمومة.

ويحاول الأصدقاء التخفيف عن "صادق" ملتمسين العذر لزوجته بأن ما أصابها ربما يكون بسبب سوء صحتها، يقول الراوي:

– لعلها الصحة!

– الصحة في أحسن أحوالها.. بل لعلها تسمن أكثر مما يجب، تفقد رشاقتها، وتطل من عينيها نظرة هادئة بل خامدة، وتُعنَىٰ بكل شيءٍ ولكنها تهمل نفسها، منظر جديد تمامًا.

وتساءل طاهر: لا مؤاخذة.. هل ...؟

فقاطعه بصراحة: تستجيب إذا استجابت بدافع الواجب لا الرغبة!

– هل وقع بينكما شيء؟

– أبدًا، نحن علىٰ أتم صفاء، المسألة أعمق من ذلك.

فقال له إسماعيل: عليك بالمزيد من الصبر"[2]

---

(١) الرواية ص ٦٧ ، ٦٨.

(٢) السابق ص ٦٨.

يؤكد "صادق" في هذا النص عمق مأساته مع زوجته "إحسان" التي لا يجد مبررًا لتغيرها سوىٰ اختلال الأولويات عندها، ربما لو ساءت صحتها لالتمس لها العذر، لكنها في أتم الصحة، غير أنها أهملت نفسها وبدأت تفقد رشاقتها ونضارتها، وهي مع ذلك تحاول إرضاء زوجها بأن تستجيب له حينما يدعوها، لكن ذلك لا يرضي زوجها الَّذي يرىٰ أن العلاقة بين الزوجين ينبغي أنْ تكون عن رغبة نابعة من كليهما.

ويحاول "صادق" أن يُنبه "إحسان" إلىٰ هذا التغير الَّذي حلَّ بها لعلها تعود إلىٰ صورتها الأولىٰ التي أحبها عليها، يقول الراوي علىٰ لسان "صادق":

"قلت لها مرة: مالك يا عزيزتي؟ لماذا تُهملين منظرك؟ كنتِ دائمًا وردة يانعة، فاعتذرت بعملها في البيت وعنايتها بالولد.. أعذار واهية وغير مقبولة.. وأكثر من ذلك فهي راضية وسعيدة، غاية في النشاط، لا تهمل شيئًا ولكنها تهمل أهم شيء.

بيتنا مثال في نظافته وطعامه، الولد يتألق دائمًا في اللفائف الناصعة، ورغم ذلك فربة البيت كبرت مائة عام"[1]

تتجلىٰ في النص السابق رغبة "صادق" في إصلاح زوجته "إحسان" فيذكّرها بما كانت عليه من جمال ورشاقة وخفة ونضارة لعلها تراجع نفسها وتعود إلىٰ حالتها الأولىٰ، لكنها تعتذر بأنَّ عملها في البيت ورعاية ولدهما هما السبب في تقصيرها، لكنَّ "صادقًا" يرىٰ أنها أعذار واهية، وحجج باطلة فهو يشاهد زوجته حينما تؤدي أعمال البيت، وترعىٰ ولدهما وهي في قمة النشاط والرضا.

(١) الرواية ص ٦٨.

ويستمر الأصدقاء في التفاعل مع "صادق" لعلهم يجدون حلا لأزمته، فيقترح "إسماعيل قدري" استشارة طبيب، ليجيبه "صادق" بأنه ألمح بذلك إلىٰ زوجته فحزنت ودمعت عيناها، فتراجع عن ذلك، ولم يجد الأصدقاء شيئا يقدمونه لصديقهم سوىٰ نصحه بالصبر، ودعواتهم لزوجته بالشفاء.

وتزداد معاناة "صادق" حينما يعلم بحمل زوجته مرة أخرىٰ، ويتوقع أن تزداد معاناته، ويحدث ذلك بالفعل، يقول الراوي:

وجاءته إحسان بابنه الثاني "صبري" وازدادت الحال سوءًا كما توقع حتىٰ قال لنا: إنها سيدة مثالية، وأم مثالية، أما أنا فزوج بائس"[1]

يتضح من النصوص السابقة أنَّ "صادقًا" لا يشتاق إلىٰ الماضي بصفته زمنًا بل يشتاق إلىٰ زوجته "إحسان" التي كانت كالوردة في نضارتها وحسنها، وكانت غاية في النشاط والخفة، إنه يحن إلىٰ زوجته في صورتها المثالية الأولىٰ حينما كانت تشاركه أوقاته الحميمية بكل نشاط وتبادله العاطفة بكل حرارة، ولا تُقدّم أحدًا عليه، لكنها الآن تحولت من زوجة محبوبة إلىٰ أم تؤدي دورها في العناية بأطفالها علىٰ أتم وجه، وصادق لا يرفض دور الأمومة الَّذي تعيشه زوجته، وإنما يرفض تفضيلها لهذا الجانب علىٰ علاقتهما الحميمية، وقد كان "صادق" يخشىٰ من ازدياد تلك الفجوة بينه وبين زوجته وهو ما تأكد لديه حينما حملت زوجته في ابنه الثاني، فازدادت معاناته وتصاعدت أزمته بدلا من أن تتحسن حالته، وتبرز هنا المفارقة المؤلمة حيث يسيطر الهم والحزن علىٰ "صادق" بينما تشعر "إحسان" بتمام الرضا والسعادة حيث وجدت في وليديها جمال الدنيا بأسرها، وهذا الرضا يجعل "صادقًا" يشعر بالعزلة

(١) الرواية ص ٦٩.

والبؤس، لأنه يرىٰ نفسه زوجًا بائسًا، والنوستالجيا هنا ليست ناشئة عن التباعد المكاني ولا الزماني وإنما ناشئة عن التباعد النفسي بين الزوجين.

ويحاول "صادق" التأقلم مع هذا الوضع القاسي لكنه يفشل، وتدفعه فورة شبابه وشبقه إلىٰ البحث عن حل لما هو فيه، ولم يجد أمامه سوىٰ البحث عن زوجة أخرىٰ تلبي حاجاته الجسدية، فيتزوج من "ليلىٰ" التي تعمل مدرسة وهي فتاة "سمراء مُمتلئة العود، ساخنة النظرة، مُثيرة، مُحتشمة الزي، أثارت اهتمامه وغرائزه"(١)

وعاش "صادق" مع زوجته الجديدة "ليلىٰ" أيامًا جميلة، وسعد بها سعادة بالغة حيث وجد فيها الجزء المفقود في "إحسان" وأصبحت "ليلىٰ" تلبي رغبات زوجها الجسدية علىٰ أكمل وجه، ومع ذلك فقد ظل "صادق" وفيًا لزوجته "إحسان" ولم يهجرها بل قسَّم الأيام بينها وبين "ليلىٰ" بالعدل، وتأقلمت "إحسان" مع هذا الوضع إذ وجدت فيه راحة جزئية من المسئولية تجاه زوجها.

وظنَّ "صادق" أنَّه حصل علىٰ مراده وأنَّ الحياة قد ابتسمت له، ولكنَّ الأيام تأبىٰ أن تكتمل سعادته فتبدأ الخلافات بينه وبين "ليلىٰ" حينما اكتشفت أنها عاقر فبدأت تظهر حدتها عليه، يقول الراوي: "واعترف لنا أنها رغم أنوثتها المُفرطة فهي حادة المزاج سريعة الانفعال قاسية اللسان، قال: كأنها تُمارس مهنة التدريس في البيت أيضًا وباتت تغار من إحسان وتتصور أنه يتلهف علىٰ زيارة بيتها ليسعد بلقاء إبراهيم وصبري"(٢)

---

(١) الرواية ص ٧٩.

(٢) السابق ص ٩٠.

يكشف النص السابق عن سبب آخر من أسباب حنين "صادق" لزوجته إحسان ويتمثل ذلك في حدّة أخلاق "ليلىٰ" مما جعل "صادق" يشعر بحنين جارف إلىٰ زوجته الأولىٰ "إحسان" فكان ينتظر الأيام التي يقضيها معها في بيتهما مع ابنيه "إبراهيم" و "صبري" وكان يُعد ذلك استراحة من المتاعب.

ويظهر وفاء "صادق" وحبه الَّذي لم تخبُ جذوته حينما تمرض زوجته "إحسان" ويدفعه هذا الحب إلىٰ الحنين والاشتياق إلىٰ زوجته "إحسان" في ريعان شبابها، يقول الراوي: "ففي بيت صادق صفوان الأول تفاقم مرض إحسان حتىٰ اضطرت إلىٰ ملازمة الفراش عاجزة تمامًا عن الحركة، وظل صادق يرعاها بكل ما في وسعه ولا ينسىٰ علىٰ حد قوله لنا: لم أعرف السعادة الحقيقية إلا بين يديها"[1]

ومع أنّ "إحسان" كانت حاضرة جسديًا، لكنه حضور في صورة حزينة حيث هزمها المرض وأثَّر ذلك في "صادق" فتحول من رجل غاضب من زوجته "إحسان" يراها زوجة مقصرة في إشباع رغباته إلىٰ رجل حزين عليها، ودفعته تلك الصورة التي صارت إليها "إحسان" إلىٰ الحنين والشوق إليها في صورتها الأولىٰ حيث عاش معها السعادة الحقيقية، وكانت مثالا للمرأة التي تلبي حاجات زوجها النفسية والجسدية.

وباتت معاناة "صادق" مع "ليلىٰ" تزداد يومًا بعد يوم، وكلما جرّعته جرعة من المعاناة، ازداد حنينًا إلىٰ زوجته الأولىٰ "إحسان"، ولا يستطيع كتمان هذا الحنين فيقول متحسرًا: "كانت بين يدي امرأة ولا كل النساء، يا للخسارة يا إحسان"[2]

---

(١) الرواية ص ٩٨.

(٢) السابق ص ٩٩.

يتجسد في النص السابق الشعور بفقدان الراحة والسكينة والمودة، وتتجلىٰ فيه معاني الحسرة والندم علىٰ ما جرىٰ بين "صادق" وبين زوجته "إحسان" حيث يتمنىٰ أن لو استمرت "إحسان" علىٰ صورتها المثالية الأولىٰ، ولو فعلت هذا لما لجأ لغيرها.

ومع استمرار هذه المعاناة لم يجد "صادق" مفرًا من طلاق "ليلىٰ"، ولكنه لم يلبث أن عاد إلىٰ معاناته الأولىٰ حيث احتاج إلىٰ من يُشبع رغباته الجسدية فلم يجد، وظل في معاناته هذه حتىٰ زارته "سناء" وهي فتاة كما يقول الراوي: "بنت ثمانية عشر ربيعًا وذات جمالٍ موفور" (١)

وأُعجب "صادق" بـ "سناء" لأنها تذكره بزوجته "إحسان" في صورتها الأولىٰ حيث كانت مثالًا للزوجة التي يتمناها كل الرجال، يقول الراوي علىٰ لسان صادق: "إنها تُذكرني بإحسان في قمة رونقها، تفاحة أمريكاني، حيوية وذكاء" (٢)

ويُسرع "صادق" فيتزوج من "سناء" ويفرح بهذه الزيجة فرحًا كبيرًا يقول الراوي: "وسَعِد بسناء سعادةً شاملة، وشعر بأنه ملك الدنيا والدِّين، ربما لم تكن سناء بالبساطة التي تمنَّاها، فلم تكن صورة طبق الأصل من إحسان" (٣)

يكشف النص السابق عن مكانة "إحسان" الكبيرة حيث استحوذت علىٰ عقل وقلب "صادق" فجعلها مقياسًا للزوجة مكتملة الصفات، ومع أن "سناء" تذكره بـ" إحسان" غير أنها لم تكن مثلها تمامًا، وربما كان الفارق العمري الكبير بين "صادق" و"سناء" وكذلك معاناته مع "ليلىٰ" سببًا في الوحشة بينهما.

---

(١)الرواية ص ١١٥.

(٢) السابق ص ١١٦.

(٣) السابق ص ١٢١.

وتبلغ النوستالجيا ذروتها عند "صادق" حينما تموت "إحسان" فيشعر بحنين جارف لحياته معها، متذكرًا كيف كانت صورة مثالية للمرأة؟!، يقول الراوي: "وحدث أن انتقلت إحسان إلىٰ رحمة الله، فحزن عليها حزنًا صادقًا، يقول: أكمل النساء، لولا مرضها الثقيل لحَظِيتُ بين يدَيها بسعادة لم يعرفها بشر"(١)

يتجلىٰ في النص السابق الحُزن العميق، والحنين الجارف الَّذي هيمن علىٰ "صادق" تجاه زوجته "إحسان"، مما يعكس منزلتها العالية في نفسه علىٰ الرغم من الفتور الَّذي أصاب علاقتهما، كما يكشف النص السابق عن ازدواجية في الوعي الذكوري لدىٰ "صادق" حيث يجمع بين إجلال المرأة من ناحية وبين تقديرها حسب عطائها الجسدي من ناحية أخرىٰ.

وتظهر النصوص السابقة أنَّ نوستالجيا "صادق" إلىٰ "إحسان" هي استدعاء لصورتها المثالية الخالية من النقائص، حينما كانت قمة في الرشاقة والنضارة والحيوية وكانت تلبي رغبات زوجها علىٰ أتم وجه وأكمله، وهذا الحنين ليس مجرد رغبة سطحية سرعان ما تخبو، وإنما هو تعبير عن أزمة العلاقة الزوجية الناشئة عن التغيرات البيولوجية والمسئوليات الأسرية، التي تؤدي إلىٰ غياب التوازن بين الأدوار، وبينما تغلب علىٰ "صادق" النزعة الذكورية والحنين الجسدي والعاطفي الذي افتقده من زوجته، تغلب علىٰ "إحسان" عاطفة الأمومة نحو ولديهما.

الصورة الثانية: حنين "إسماعيل" إلى زوجته "تفيدة":

وأنتقل من "صادق" إلىٰ "إسماعيل" الَّذي كشف الراوي عن حنينه إلىٰ زوجته "تفيدة" لكنه حنين دون حنين "صادق"، حيث تزوج "إسماعيل" من "تفيدة" التي تكبره بسنوات، وهي كما وصفها الراوي علىٰ لسان إسماعيل: "مقبولة من نواحٍ

(١) الرواية، ص ١٢٥.

كثيرة، أسمن قليلًا مما ينبغي، أغمق في سمرتها مما أود، في أنفها فطس خفيف، عيناها نجلاوان، حديثها يقطع بأنها تبحث عن الشرع، وفي تقديري أنها في الأربعين من عمرها"[١]

وهذا الوصف الَّذي ساقه "إسماعيل" يحمل في طياته تفسيرا لكون حنينه دون حنين "صادق" فزوجة "إسماعيل" أقل جمالا من "إحسان" زوجة "صادق"، كما أنَّ "تفيدة" أكبر سنًا من إسماعيل، ورغبته في الزواج منها لم تكن مبنية في المقام الأول علىٰ الرغبة الجسدية الطاغية.

وعاش إسماعيل حياة مستقرة مع "تفيدة" وحملت علىٰ غير رغبة منه، وأنجبت له ابنه "هبة الله" وعَدَت الأيام علىٰ "تفيدة" فأحالتها إلىٰ عجوز، لكنها كانت متشبثة بشبابها فحاولت عبثًا مقاومة عجلة الزمن، يقول الراوي متحدثًا عن ذلك: "ولم يعد يَجِد عزاءً في تفيدة التي بلغت الستِّين حين بلغ الخمسين، ولم تكن تُسلِّم بالواقع أو تستسلم للهزيمة فأنفقت عن سعة علىٰ طعامها المختار ورياضتها اليومية، والموضة التي تتنافر مع سنِّها، وتُبالغ في التبرُّج لدرجةٍ تُثير الابتسام، واعترف لنا يومًا قائلًا:

-هيهات أن أنسىٰ فضلها ولكن رغبتي فيها تموت ساعةً بعد أخرىٰ"[٢]

يُظهر النص السابق حنينا دفينا من إسماعيل إلىٰ زوجته "تفيدة" في صورتها الأولىٰ حينما تزوجها وكانت تحتفظ ببقايا شبابها، وكانت أكثر حضورًا وتأثيرًا في حياته، ورغم هذا التغيير الَّذي أصابها ما يزال "إسماعيل" يعترف بفضلها وإنْ كانت رغبته فيها "تموت ساعةً بعد أخرىٰ" ويُعد هذا أحد مظاهر النوستالجيا حيث تظل ذكرىٰ الشخصيات محفورة في الوجدان مهما أصابها من تغيرات.

---

(١)الرواية ص ١١٠.

(٢)السابق ص ١١٠.

المحور الثاني: نوستالجيا الوالدين والأبناء:

تزوج "طاهر عبيد" من "رئيفة" وهي كما يصفها الراوي: "بنت سمراء رشيقة الملامح فائرة الجسم ثائرة النهدَين خفيفة الحركة، وتماثل طاهر في سنه علىٰ الأقل، لا يجهلها أحد من أهل العباسية تقريبًا، فهي تُقيم مع أمُها في شقة بعمارة متوسطة العمر تطل علىٰ العباسية من ناحية وعلىٰ القَرَافة من ناحية أخرىٰ، وهي ممرضة تمارس مهنة إعطاء الحقن للمرضىٰ عن طريق الصيدلية ويُقال إنها تعمل أيضًا في مستشفىٰ، سيئة السِمعة دون أي دليل"[1]

وكان زواج "طاهر" من "رئيفة" سببًا في غضب والديه عليه، وانفصاله عنهما، ويصور الراوي مواجهة "طاهر" مع والديه حينما طلب الزواج بـ" رئيفة" فيقول: "وتكمُن أزمته الحقيقية في حبه والدَيه مع حرصه الكامل علىٰ استقلاله، ولم يعُد يحتمِل التأجيل ولا يقبل بالهرب، فمضىٰ إليهما في الشرفة المُطلة علىٰ الحديقة في الأصيل، وبدون مُقدمات قال بصراحته المعهودة: إني أفكر جادًا في الزواج.

لم يظهر أي ردِّ فعلٍ كما توقع، غاية ما في الأمر أن الباشا تساءل مُتهكمًا: هل تُوجَد فتاة محترمة ترضىٰ بفتىً في وضعك؟

فقال بهدوء: وجدتها وهي جدُّ راضية.

وانفلت الباشا من بروده فقال بانفعالٍ شديدٍ: إذن هو حقٌّ ما سمعتُ وأبَيت تصديقه؟

وسألته الهانم بمرارة شديدة: ماذا تقول؟

فقال بهدوء: لا أدري شيئًا عما سمعتم ولكنها رئيفة حمزة!

– البنت الممرضة!

---

(١)الرواية ص ٣٩.

وصاح الأب: البنت صاحبة السمعة.

فقاطعه طاهر واقفًا: بابا، من فضلك!

فصاح الباشا: ثمة قوة مجهولة تريد أن تنتقم مني وتنكل بسمعتي.

وهمست الهانم: يا للخسارة يا طاهر!

ورجع الأب يقول: حذار.. حذار أن تقترب هذه البنت من بيتنا.

فقال طاهر بأسًى: أمرك مطاع!

تابعناه متأثِّرين فابتسم ابتسامة لا معنىٰ لها وقال: وحملت أشيائي وذهبت"[1]

تتجلىٰ في النص السابق ذروة الصراع بين "طاهر" ووالديه حيث يُعلن "طاهر" في وضوح ودون مقدمات عن رغبته في الزواج من "رئيفة" مما يعكس إصراره الَّذي يتقاطع مع طبقية الوالدين الذَين يرفضان هذه الزيجة، ويحسم "طاهر" أمره دون تردد، وتتبدىٰ في النص بواعث النوستالجيا عند "طاهر" فهو يحب والديه حُبًا كبيرًا وفي الوقت نفسه يحرص علىٰ استقلاليته، ولا يقبل بأنْ يرضخ لتقاليد أسرته التي ترفض زواجه من "رئيفة" لأنها ليست في منزلتهم الاجتماعية.

ويُصر "طاهر" علىٰ رأيه فيتزوج "رئيفة" وينفصل عن والديه، فتتقد نار الحنين في قلبه، ويتملكه الشوق إلىٰ رؤية والديه، ولكنه يخاف أن يصداه، ويسأله حمادة أحيانًا متفكرًا حبه القديم لوالدَيه: ألا تحن أحيانًا إلىٰ بين السرايات؟

فيتفكر مليًّا ثم يقول مُداريًا أشجانه بالابتسام: اهجر من يهجرك"[2]

---

(١)الرواية ص ٥٩، ٦٠.

(٢)السابق ص ٦٦.

يُعد هذا النص من النوستالجيا المكبوتة فـ "طاهر" يحاول إخفاء حنينه وحبه الشديد لوالديه، ويشير تفَكّره في الأمر إلىٰ تردد داخلي بين الإعلان عن هذا الشوق أو نفيه، وربما فُوجئ بسؤال "حمادة" فتحرك في نفسه هذا الحنين، فهو يشتاق لكنه لا يعترف، ويتألم لكنه يبتسم محاولا إخفاء مشاعره.

ويزداد حنين "طاهر" لوالديه مع مرور الوقت خاصة بعدما أنجب ابنته "درية" ويتمنىٰ أن يلتقي بوالديه ليشاهدا حفيدتهما لكنه يخاف من ألا يستقبلاها بما تستحقه من رعاية وعناية، فَيَقِل حبه لهما، يقول الراوي: "وقال له صادق مرة: لو زرتَ فيلَّا بين السرايات ومعك دُريَّة لغَزَت البنت القلوب المُغلقة!

فقال طاهر بإشفاق: أخاف ألا تُستقبل درية بما هي أهل له من المودة فيتغير قلبي من ناحية والِدَيَّ اللذَين ما زلت أحبهما.

– ولكن للحفيد سحرًا لا يُقاوم.

فقال طاهر ضاحكًا: إنك لا تعرف والدَيَّ كما أعرفهما"(١)

يكشف النص السابق عن نوستالجيا مصحوبة بالخوف من المستقبل حيث يتقاطع تعلق "طاهر" بوالديه وحنينه المتزايد إليهما واشتياقه للقائهما مع خوفه من حدوث شرخ في علاقته بهما إذا لم يُحسنا استقبال ابنته.

وتزداد نوستالجيا "طاهر" لوالديه يومًا تلو الآخر حتىٰ تصل ذروتها حينما يعلم بمرض والده؛ فيقرر زيارته منفردًا ليضع حدًا لتلك السنين العجاف، ويروي هذا الظمأ العاطفي الَّذي استبد به مودعًا خلافات الماضي، يقول الراوي: "وفي تلك الأيام علِم طاهر أن أباه معتكف في فيلا بين السرايات لمرضٍ خطير في المثانة، فأزاح

(١)الرواية ص ٧٧.

عن صدره عُقَد السنين ومضىٰ إلىٰ الفيلَّا، رجع إليها كهلًا بعد أن غادرها شابًّا في ربيع العمر"[١]

لقد تغلب "طاهر" علىٰ مخاوف نفسه وانطلق نحو والديه يدفعه حنينه إليهما، وعبارة "أزاح عن نفسه عقد السنين" توحي بمدىٰ معاناة "طاهر" ومدىٰ حنينه إلىٰ والديه، وعند وصول "طاهر" استقبلته والدته بحرارة وحنان ثم قادته إلىٰ والده الَّذي قابله أيضًا بشوق وحنان ربما لم يتمكن من إظهاره بصورة واضحة بسبب علته، وفي هذا اللقاء ذابت جبال القطيعة المتراكمة بين الابن ووالديه، وانصهرت الحواجز التي كانت قائمة بينهم، وانتهىٰ اللقاء بمبادرة طيبة من "الأرملاوي باشا" الَّذي أدرك أنَّ أيامه في الدنيا باتت معدودة فطلب من ابنه أن يُحضر أسرته ليراها، وأسرع "طاهر" في تلبية طلب والده وأتىٰ بأسرته يقول الراوي:

"وتمت الزيارة في جوٍّ يعبق برائحة الفناء، الباشا طريح الفراش يطوي الفصل الأخير من حياته الشامخة، والهانم اشتعل شعرها شيبًا وغاض من وجهها ماء الحياة، وصحبته رئيفة ودُرية وإبراهيم، فبعثت دُرية بحيويتها وجمالها انتفاضةً مُنعشة في الجو القاتم، ضمَّتها الهانم إلىٰ صدرها بحنان، وأبقىٰ الباشا يدَها في يدِه طويلًا، ولبثوا في الفيلَّا، حتىٰ تناولوا الغداء، وبعد أيامٍ أسلم الأرملاوي باشا روحه، فرثته الصحف رثاءً لائقًا وودَّعته العباسية في جنازة كبيرة، ودعت إنصاف هانم القللي ابنها وزوجته وحفيدتها وزوجها للإقامة معها في الفيلَّا"[٢]

---

(١)الرواية ص ١٠٤.

(٢)السابق ص ١٠٤.

يكشف النص السابق عن مشهد مليء بالمشاعر والانفعالات حيث جاء "طاهر" صاحبًا زوجته وابنته "درية" وزوجها "إبراهيم صادق" وقد بعث قدومهم خاصة "درية" الحيوية والشباب في أرجاء المكان، وعاشت الأسرة في سعادة، لكنها لم تدم طويلا حيث تخطَّف الموت "الأرملاوي باشا"، ومع أنَّ الوقت الَّذي قضاه "طاهر" وأسرته في كنف والديه لم يدم طويلا إلا أنه كان كفيلًا بأن يُبدد الجفاف الَّذي سببته القطيعة، وأن يروي أفراد الأسرة ظمأهم العاطفي، وهذا النص يكشف عن نوستالجيا مزدوجة، وحنين متبادل بين الابن ووالديه فحنين "الأرملاوي باشا" و "إنصاف هانم القللي" إلىٰ "طاهر" لا يقل عن حنين "طاهر" إليهما فقد عاش الجميع معاناة البُعد وقسوة الحرمان العاطفي، وربما كان كل فرد من الثلاثة ينتظر غيره أنْ يأخذ زمام المبادرة لينهي هذا الانقسام، ويقضي علىٰ هذه القطيعة.

وأنتقل إلىٰ ملمح آخر من ملامح نوستالجيا الأهل في رواية "قشتمر" وهو نوستالجيا الأبناء الَّذين دفعتهم بعض الظروف إلىٰ ترك الوطن، ويظهر ذلك في حنين "صادق" و "إحسان" إلىٰ ولدهما "صبري" الَّذي ذهب إلىٰ السعودية خوفًا من ملاحقته، فاستبد الحنين بالوالدين، واشتعلت نار الشوق في قلبهما، يقول الراوي: "وقد شقَّ الفراق علىٰ صادق وإحسان ولكنه تعزىٰ بأن ابنه وجد في السعودية مستقرًّا وعملًا وأمنًا"(١)

يصور النص السابق حالة من النوستالجيا التي عاشها الوالدان "صادق" و "إحسان" فقد كانا يشعران بالحنين والشوق إلىٰ ابنهما "صبري" الَّذي سافر إلىٰ المملكة العربية السعودية هربًا من الملاحقة الأمنية، ويُظهر "صادق" حنكة وحكمة

(١)الرواية ص ١٠٧.

في التعامل مع هذا الحنين حينما يُسلي نفسه وزوجته بما يحققه ابنهما في سفره من حصوله علىٰ عمل، وعيشه في استقرار وأمن، وهذا التبرير العقلاني لا ينفي حنينه، وإنما يخفف من حدته حيث يجد في استقرار ولده وأمنه عزاء لألمه.

ولا تختلف صورة النوستالجيا عند "إسماعيل" و "تفيدة" كثيرًا عن الصورة السابقة حيث سافر ابنهما "هبة الله" فاشتد وجدهما، وازداد إليه حنينهما، يقول الراوي: "وتخرج هبة لله مهندسًا في الرابعة والعشرين من عمره، وبقلبٍ حطمته الهزيمة وانتكاسة البطل فحقَّق حلمًا راوده من قديمٍ وهو الهجرة، فهاجر إلىٰ السعودية، وجزعت تفيدة ولكن إسماعيل قال لها: لستُ دونك في النكد ولكن لعله يجد في المال عزاء"(١)

إنها صورة مكررة من سابقتها حيث يتبدّىٰ حزن الوالدين علىٰ فراق ابنهما، ويتجلىٰ حنينهما وتعلقهما العاطفي بابنهما، الَّذي ترك وطنه مهاجرًا إلىٰ السعودية بحثًا عن عمل يؤمن له مستقبله، وكما فعل "صادق" في محاولته التخفيف من ألمه وزوجته فعل "إسماعيل" عندما اتكأ علىٰ العقل في محاولة التصالح مع هجرة ابنه، وهذا التصرف من الأبوين يعكس نضجهما، وتغليبهما العقل علىٰ العاطفة حيث لم يقعا فريسة لليأس المطبق، مما يعكس قدرتهما علىٰ التكيف مع تلك الظروف القاسية.

ويظهر الراوي من خلال سرده الصورتين التغير الكبير الَّذي حلَّ بالأجيال فبينما لم يفكر الآباء في ترك وطنهم رغم مروره بكثير من المحن والأزمات، وجد الأبناء في الهجرة متنفسًا لهم عن واقعهم الأليم.

---

(١)الرواية ص ١١٩.

وقبل أن يُنهي الراوي روايته يصور ما يعتريه ورفاقه من حنين إلىٰ من فارقوا الدنيا فيقول: "ورحنا نتذكَّر من طواهم النسيان، صفوان النادي وزهرانة كريم، رأفت باشا الزين وزبيدة هانم عفت، إحسان، يسري باشا الحلواني وعفيفة هانم نور الدين، عبيد باشا الأرملاوي وإنصاف هانم القللي، قدري سليمان وفتحية عسل، وعشرات من الزملاء والمعارف"(١)

يكشف النص السابق عن نوستالجيا جماعية أحس بها الراوي ورفاقه حيث شعروا بالحنين الجارف إلىٰ أولئك الأشخاص الذين تخطفتهم يد الردىٰ فرحلوا بأجسادهم ولكن بقيت ذكراهم العطرة عالقة في النفوس؛ لدورهم الفعَّال في تشكيل الوجدان، مما يُشير إلىٰ أنّ الماضي بأفراده ما يزال حيًا ومؤثرًا في الحاضر.

(١) الرواية ص ١٤٦.

المحور الثالث: نوستالجيا الشخصيات الوطنية:

تبرز في رواية "قشتمر" نوستالجيا الشخصيات الوطنية انعكاسًا لانهيار الآمال التي عاشها الراوي ورفاقه، فشخصيات الرواية التي عايشت الكثير من الشخصيات الوطنية وجدت في بعض هذه الشخصيات صورة مكتملة للقائد، ويُعد "سعد باشا زغلول" أبرز الشخصيات الوطنية –آنذاك– فقد تعلق به المصريون حينما وجدوا فيه مثالا للقائد الوطني الَّذي يعبر عن آمالهم وطموحاتهم في نيل الحرية والاستقلال، ويُصور الراوي لحظات التفاف جموع الشعب حول "سعد باشا زغلول" عند عودته من منفاه الثاني فيقول: "وعندما هلَّت علينا سيارة الشيخ، عندما لمَحْنا من موقعنا فوق سور الأزبكية قامَتَه المترامية، ووقاره الجذاب، جُن جنوننا، واشتعلت جوارحنا بنيران مُقدسة، واختزن وعينا في سراديبه.. يومًا وذكرىٰ وصورة لم يعُد في الإمكان أن تتلاشىٰ"(١)

يُعيد الراوي في النص السابق إحياء لحظات خالدة في ذاكرة الشعب المصري يدفعه إلىٰ ذلك حنينه إلىٰ شخصية "سعد باشا زغلول" الَّذي كان يمثل له ولجموع الشعب المصري رمزًا خالدًا للعزة والكرامة، وحينما يصفه لا يذكره باسمه، ولكن يصفه بعدة صفات "الشيخ، قامَتَه المترامية، وقاره الجذاب" ليضفي علىٰ شخصية "سعد باشا زغلول" مزيدًا من الجلال والجاذبية، وتتقاطع نوستالجيا الزمان مع نوستالجيا الشخصية في هذا النص، إذ يعبر الراوي عن وحدة الشعب والتفافه حول قائده، وإصراره علىٰ نيل حريته وكرامته.

ويستعيد الراوي لحظات وداع جموع الشعب المصري لزعيمهم "سعد باشا زغلول" وهي وإن مثّلت لحظات حزينة غير أنَّ الراوي عمد إلىٰ استرجاعها لما تحتويه من اجتماع فئات الشعب وتوحدهم خلف قائدهم حيًا وميتًا، فالراوي يدفعه الحنين إلىٰ تذكر شخصية "سعد باشا زغلول" في مختلف حالاتها، يقول الراوي:

---

(١)الرواية ص ٢٦.

"وفي غمرة الهموم الخاصة الممتعة خفق فؤاد الوطن خفقة أليمة عميقة بموت الزعيم سعد زغلول، شدَّ ما ذُهلنا واشتعلت جوانحنا بنار الحزن والحسرات، حتىٰ طاهر عبيد وَجَمَ وأسف بعد أن أظلت زعامة الراحل الجميع في الائتلاف الوطني وأحبه الخصوم مع المُريدين والأتباع، وكل منا له حكاية عن الخبر في أسرته وما أسال من دموع، كل عين بكت سعد وكل قلب امتلأ بالشجن، وسأل صادقٌ، طاهرَ عبيد: كيف تلقَّىٰ عبيد باشا وإنصاف هانم الخبر؟

فأجاب: بالحزن طبعًا، وقال أبي إنه في أعوامه الأخيرة كفَّر عن ماضيه كله وأصبح أبًا للشعب والوطنية "[1]

يستعيد الراوي في النَّص السابق صورة للحزن الَّذي سيطر علىٰ جموع الشعب المصري، حينما صُدموا بوفاة زعيمهم "سعد باشا زغلول" ومع أنَّ هذه الصورة سوداوية شديدة العتمة إلا أنَّها تحمل حنينًا جارفًا وتشير إلىٰ ترابط الشعب المصري واتحاد فئاته في حزنهم علىٰ "سعد باشا زغلول"، إنه حنين إلىٰ زعامة وطنية استطاعت أن تجمع فئات الشعب وأن توحد كلمتهم فأحبه أفراد الشعب علىٰ اختلاف طبقاتهم وأيدولوجياتهم، وعبَّر أفراد الشعب عن ارتباطهم بزعيمهم من خلال توافدهم لتشييع جثمانه إلىٰ مثواه، لا فرق بين تابع ومعارض، وتتقاطع نوستالجيا الزمان في هذا النَّص مع نوستالجيا الشخصية إذ يكشف الراوي عن حنين جمعي إلىٰ هذا الزمان مستحضرًا مشهد الرحيل الَّذي اتحد فيه أبناء الشعب فشكلوا لحمة متماسكة حتىٰ في أحلك الظروف وأشدها قسوة.

يتضح لنا مما سبق أنَّ نوستالجيا الشخصيات لعبت دورًا بارزًا في تشكيل البنية السردية للرواية، وفي توجيه مسار الشخصيات داخلها.

وتكشف النصوص السابقة عن بواعث نوستالجيا الشخصيات التي يمكن تلخيصها في الآتي:

---

(١)الرواية ص ٤٤.

• التغير الجسدي والبيولوجي الَّذي أصاب "إحسان" عقب ولادتها، ولم تستطع مقاومته، ولم يستطع "صادق" التكيف معه.

• الشعور بالتهميش الَّذي أصاب "صادقًا" حينما عجزت "إحسان" عن الفصل بين واجبات الأمومة وحقوق الزوج مما دفع "صادقًا" إلىٰ الشعور بأنه لم يعد من أولويات زوجته وأصبح مهمشًا.

• الرغبة الجسدية الطاغية عند "صادق"، التي جعلته يتزوج مبكرًا ليعف نفسه ويحفظ دينه، ولكن زوجته "إحسان" لم تستطع الاستمرار في تلبية رغباته الجسدية فلجأ للزواج مرتين.

• قسوة الزمن التي تمثلت في إحالة "تفيدة" إلىٰ عجوز مما أضعف رغبة "إسماعيل" فيها، وجعله يحن إليها في صورتها الأولىٰ.

• الفوارق الطبقية التي دفعت أسرة "طاهر" إلىٰ رفض زواجه من "رئيفة" مما ترتب عليه هجر "طاهر" لوالديه.

• الخوف من المستقبل وحب الهجرة الَّذي دفع "صبري" و "هبة الله" إلىٰ ترك الوطن.

• افتقاد الزعامة الوطنية-آنذاك- الَّذي جعل الأصدقاء يشعرون بالحنين إلىٰ الزعيم الوطني "سعد باشا زغلول".

المبحث الثاني: نوستالجيا المكان(١)

يُعد المكان أحد أبرز مكونات التجارب الإنسانية، فالمشاعر لا تنفصل عن جغرافيتها التي احتضنتها، وللمكان أهمية كبرىٰ في الرواية فهو الحيز الَّذي تجري فيه أحداث العمل الروائي، ويتفاعل مع الشخصيات ويؤثر فيها، واكتسب المكان أهمية كبيرة ليس لأنه أحد عناصرها الفنية، أو لأنه المكان الَّذي تجري فيه الحوادث وتتحرك خلاله الشخصيات فحسب بل لأنه يتحول في بعض الأعمال المتميزة إلىٰ فضاء يحتوي كل العناصر الروائية بما فيها من حوادث وشخصيات وما بينها من علاقات، ويكون هو نفسه المساعد علىٰ تطوير بناء الرواية.(٢)

وتقوم دراسة المكان في الرواية علىٰ تشكيل عالم من المحسوسات قد تطابق عالم الواقع وقد تخالفه.(٣)

ويُعد المكان من أبرز التقنيات الكاشفة عن النوستالجيا في رواية "قشتمر" حيث استطاع الراوي من خلال استبطانه الشخصيات الكشف عما يعتريها من حنين وشوق

---

(١) أغلب النقاد العرب يستخدمون مصطلح (المكان) أو (الفضاء) بينما يغلب علىٰ النقاد الغربيين استخدام مصطلح (Espce, space) ويترجم إلىٰ (الحيز)، ويحاول الدكتور/ عبد الملك مرتاض التفريق بين المصطلحات الثلاثة فيشير إلىٰ أنَّ مصطلح الحيز أعمها وأشملها؛ لأنَّ مصطلح (الفضاء) قاصر بالقياس إلىٰ (الحيز)؛ لأنّ الفضاء من الضرورة أن يكون معناه جاريًا في الخواء والفراغ، بينما الحيز ينصرف استعماله إلىٰ النتوء، والوزن والثقل، والحجم، والشكل، علىٰ حين أنّ المكان يمكن أنْ نقفه في العمل الروائي علىٰ مفهوم الحيز الجغرافي وحده. يُنظر في نظرية الرواية للدكتور/ عبد الملك مرتاض ص ١٤١.

(٢) يُنظر الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيوثقافية للدكتورة/ هويدا صالح ص ١٩٧ – طبعة رؤية للنشر والتوزيع- القاهرة- الطبعة الأولىٰ ٢٠١٥ م.

(٣) يُنظر بناء الرواية للدكتورة/ سيزا قاسم ص ١٠٧ –مكتبة الأسرة- القاهرة- ٢٠٠٤ م.

للحيز المكاني الَّذي جرت فيه الأحداث، فتجتر ذكرياتها مختلطة بالأحاسيس والمشاعر؛ مما يعكس ارتباط المكان بالبعد النفسي لتلك الشخصيات، وسيكون حديثي عن نوستالجيا المكان في رواية "قشتمر" من خلال المحورين الآتيين:

المحور الأول: نوستالجيا المكان المغلق:

يُقصد بالمكان المُغلق: ذلك المكان الَّذي حُددت مساحته ومكوناته كغرف البيوت والقصور فهو المأوىٰ الاختياري والضرورة الاجتماعية أو كأسيجة السجون فهو المكان الإجباري المؤقت...أو هو الأماكن الشعبية التي يقصدها الناس لتمضية الوقت والترويح عن النفس كالمقاهي، أو هي تلك الأماكن التي تتردد عليها الطبقة المُترفة الثرية لتشبع نزواتها كالملاهي.(١)

ويُعد مقهىٰ "قشتمر" في الرواية أبرز العناصر الكاشفة عن نوستالجيا المكان المغلق، واحتفىٰ به نجيب محفوظ احتفاء كبيرًا بداية من جعله عنوانًا للرواية ليدل دلالة واضحة علىٰ مدىٰ تعلقه بهذا المكان، ومع أنَّ الأصدقاء الخمسة لم ينقطعوا عن "قشتمر" إلا زمنًا قليلًا حين قام صاحبه بتجديده بيد أنَّ الحنين إليه حاضر بقوة في ثنايا السرد مما يعكس لونًا دقيقًا من النوستالجيا يتمثل في أنَّ "قشتمر" شكَّل وعاءً وذاكرة جمعية للأحداث والذكريات التي مرت بهم، بل إنهم يرون فيه انعكاسًا لأنفسهم، ولأجل ذلك يعمد الراوي إلىٰ أنسنة "قشتمر" فتتضح قيمته العالية عند أبطال الرواية، فهو ليس مكانًا عاديًا وإنما هو مكان حي يتفاعل معهم، يقول الراوي علىٰ لسان "حمادة الحلواني": "ولا أجد شيئًا من الراحة إلا في قشتمر"(٢)

---

(١) يُنظر جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه لمهدي عبيدي ص ٤٣، ٤٤ -طبعة الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق- ٢٠١١ م.

(٢)الرواية ص ١١٨.

ويقول متحدثًا عن مكانة "قشتمر" عند صادق: "وباع دكانه، وتفرغ لتربية نُهىٰ، ومهادنة الروماتيزم، وقراءة القرآن والحديث، وأدَّىٰ فريضة الحج، ولكن ظلَّ رُكننا بقشتمر قُرَّة عينه"(١)

ويقول معبرًا عن ارتباطهم الوثيق بـ "قشتمر" ويُمسي قشتمر عضوًا فينا كما نُمسي ركنًا فيه"(٢)

إنه التماهي الوجودي الَّذي نتج عن تلك العلاقة الوطيدة التي تتجاوز علاقة مجموعة من البشر بمكان ما، حيث تتماهىٰ الذات مع المكان الَّذي حوّله الراوي إلىٰ إنسان يبادلهم المشاعر والأحاسيس.

ويصف الراوي "قشتمر" حينما رأوه أول مرة وصفًا يدل علىٰ انطباع صورته الأولىٰ في أذهانهم، إنها لحظة الميلاد للنوستالجيا التي ستزداد يومًا بعد يوم، يقول الراوي: "وطالعنا قشتمر بلونه الأخضر الزاهي، وحجمه المحدود الذي لا يزيد عن حجم بهوٍ بسراي الزين باشا — كما قال صادق — ومراياه المُثبتة في الجدران، وحديقته الصغيرة الموصولة به بباب صغير مفتوح، تنطلق بأركانها نخلات أربع، ويقوم في الوسط عدد من الموائد في صورة مُربع متساوي الأضلاع، أشار صاحبنا إلىٰ مائدة في عمق المكان في أقرب موضع إلىٰ منصة الشغل، فاتجهنا نحوها متجنبين الأنظار من شدة الحياء والارتباك، بدونا نبتًا جديدًا في عمره ومنظره، ودخل ثلاثة منا في جلابيبهم، وعلىٰ رفٍّ وراء المنصة اصطفت النراجيل وقوارير المشروبات فضاعفت من ارتياعنا، جلسنا حول المائدة نتلقىٰ النظرات المستطلعة بوجوه ساخنة حتىٰ جاءنا النادل وبدأت الممارسة الجديدة، هكذا عرفنا قشتمر في أواخر ١٩٢٣م أو أوائل ١٩٢٤م، ودون أن ندري أنه سينعقد بيننا وبينه زواج لا انفصام له، وأنه سيصغي

(١)الرواية ص ١٢٨.

(٢) السابق ص ١٢٤.

بصبرٍ وتسامحٍ إلىٰ حوارنا وأساطيرنا عمرًا طويلًا، بل ما زال يصغي مُستوصيًا بصبره وتسامحه"(١)

يكشف هذا النص عن اللقاء الأول بين الأصدقاء و "قشتمر" حيث تُشكّل الدهشة والإعجاب نقطة التَغيُّر التي تحوّل فيها "قشتمر" من حيز مكاني ضيق إلىٰ وعاء للنوستالجيا العميقة، ويصفه الراوي وصفًا دقيقًا يدل علىٰ تمكن صورة "قشتمر" الأولىٰ في ذاكرة الأصدقاء ووجدانهم "لونه الأخضر الزاهي، وحجمه المحدود، ومراياه المُثبتة في الجدران، وحديقته الصغيرة الموصولة به بباب صغير مفتوح، تنطلق بأركانها نخلات أربع، ويقوم في الوسط عدد من الموائد في صورة مُربع متساوي الأضلاع" إنها لحظات تَذكُّر يتجلىٰ فيها الحنين إلىٰ اللقاء الأول، ومع أن هذا اللقاء كان خليطًا من الخجل والارتباك والفرح غير أنَّ الراوي يستدعيه ويحن إليه، وكأنه يصور اللقاء الأول بين عاشقين الَّذي يظل راسخًا في وجدان الطرفين مع ما يشوبه من اضطرابات، وتبدأ العلاقة بين الأصدقاء و "قشتمر" منذ هذه اللحظات، وتزداد ترابطًا يوما تلو الآخر، ومنذ هذا اللقاء يجعل الراوي "قشتمر" شريكًا لهم، ويضفي عليه صفات الإنسان، لتتجلىٰ أنسنة المكان في أبهىٰ صورها.

وتمضي عجلة الزمان، وتتسارع أحداثه ويبقىٰ "قشتمر" وفيًا بعهده، يقول الراوي: "وتتغير المصائر وتتفاوت الحظوظ ولكن تظلُّ العباسية حيَّنا، وقشتمر مقهانا، وفي أركانه، تسجَّلت أصواتنا، مُخلِّدةً البسمات والدموع وخفقاتٍ لا حصر لها من قلب مصر"(٢)

فالأصدقاء لا ينظرون إلىٰ "قشتمر" كبناء مكون من جدران وكراسٍ وغير ذلك، وإنما يرون فيه حيزًا احتضن لحظات التحول التي مرت بهم، وأرشيفًا يحتفظ

(١)الرواية ص ٢٨.

(٢)السابق ص ٦.

بذكرياتهم، وشريكًا لهم في أفراحهم وأتراحهم، إنه حنين لا ينبعث من فُقدان المكان فعليًا، وإنما من الحنين إليه كحيزٍ شاركهم مراحل حياتهم وأحداثها.

ويواصل الراوي أنسنة "قشتمر" وإظهار الحنين إليه فيقول: "وصمد قشتمر وكأنه وطنٌ ثانٍ لنا، وتُوفي صاحبه الكهل وحل محلَّه ابنه، وتردَّدت فيه أصواتنا تحتفل بسقوط صدقي، وبشائر سياسية جديدة"(١)

وجد الراوي ورفاقه في "قشتمر" ملاذًا نفسيًا آمنًا يشتاقون إليه، ولا يُطيقون الابتعاد عنه، وتحول من مجرد مقهىٰ إلىٰ وطن ثان يشعرون فيه بالأمان والطمأنينة، ويشاركهم سعادتهم وفرحتهم، وتتبدىٰ نوستالجيا المكان في هذا النص في كون "قشتمر" وعاءً للأحداث التي عاشها الأصدقاء.

وتمضي الأيام ويحتاج "قشتمر" إلىٰ بعض التجديدات ويتنبه "حمادة الحلواني" إلىٰ ذلك، يقول الراوي: "فقال حمادة بلا مناسبة: قشتمر أيضًا طعن في السن وشاخ، يحتاج إلىٰ طلاءٍ وتجديد في المقاعد والموائد، وترميم في دورة المياه، وحديقته المتواضعة ممكن أن تُضاهي حديقة كازينو العائلات في نضارتها"(٢)

يكشف هذا النص عن حنين ممزوج بالوفاء حيث تنبه "حمادة" إلىٰ ما فعله الزمان في "قشتمر" حيث بهتت ملامحه، وبليت مقاعده وموائده، وصار كالإنسان الهرم الَّذي أصابته الشيخوخة، وهنا تتجلىٰ أنسنة المكان في أبرز صورها، مما يثير في النفس شعورًا بالحنين إلىٰ المكان في صورته الأولىٰ حينما زاره الأصدقاء أول مرة؛

(١)الرواية ص ٦٩.

(٢) السابق ص ٩٥.

لذا اقترحوا تجديده ليستطيع مواكبة الزمان، وليستمر في كونه حيزًا يجمعهم، وصديقًا يشاركهم أحلامهم، ويستودعون لديه أسرارهم، ويحنون إليه، ويحن إليهم.

وعندما قرر صاحب "قشتمر" تجديده انقطع الأصدقاء عن زيارته، ثم عادوا إليه فور الانتهاء من تجديداته، يقول الراوي: "وظل رُكننا بقشتمر عامرًا بوجودنا فلم ننقطِع عنه إلا فترة قصيرة حينما قرَّر صاحب المقهىٰ تجديده؛ غيَّر أرضيته، وطلىٰ الجدران بلونٍ ناصع البياض، وأحل أثاثًا جديدًا مكان القديم، وعُني بالحديقة فزرع الياسمين في أصل سورها وزيَّن أركانها بأصُص الورد والقرنفل، ورمَّم دورة المياه، وابتاع طاقمًا جديدًا من النراجيل، وأضاف إليها وحدتَين، واحدة لتقديم الدَّندُورمة والأخرىٰ – فرن– لتقديم الكوفتة"(١)

لم تؤثر يد الحداثة التي طالت "قشتمر" في علاقة الأصدقاء به، ولم يجدوا غرابة أو وحشة عندما عادوا إليه، وهنا تتجلىٰ نوستالجيا المكان المغلق حيث كان الحنين الجماعي إلىٰ "قشتمر" هو الدافع لعودة الأصدقاء إليه بعد أن انقطعوا عنه، ولم يستطيعوا استبداله بمكان آخر، ولا شك أنهم تنقلوا في هذا الوقت الَّذي أُغلق فيه "قشتمر" بين أكثر من مقهىٰ لكنهم لم يجدوا راحتهم إلا في مكانهم المفضل الَّذي شكَّل حيزًا لذكرياتهم، ورمزًا للدفء الجماعي وملاذًا نفسيًا آمنًا لهم.

ومع مُضي الزمن يزداد ارتباط الأصدقاء بـ "قشتمر" الَّذي وجدوا فيه مأوىٰ ووعاءً آمنًا لذكرياتهم، يقول الراوي: "هلموا نمضي معًا في الحلقة الثامنة ركن

(١)الرواية ص ١١٢.

قشتمر باقٍ، ربنا يُديمه! المكان المُستقر الوحيد مهما تثرِ العواصف من حولنا، ولا تحول جدرانه القديمة بيننا وبين الدنيا"(١)

يتجلىٰ في النص السابق الطابع الجماعي للنوستالجيا حيث يتبدىٰ التعلق الوجداني بـ "قشتمر" الَّذي يمثل الصمود في وجه المتغيرات والاضطرابات فهو يماثلهم في تماسكهم وثبات صداقتهم، وهو مع هذا الصمود والاستقرار لا يشكل عائقًا بينهم وبين تطورات الحياة، وإنما يشكل جسرًا للتواصل بينهم وبين العالم الخارجي؛ لذا تجدهم يلهجون بالدعاء "ربنا يُديمه!"

وتزداد حدة النوستالجيا حتىٰ تصل إلىٰ ذروتها حين يقترح "صادق صفوان" الاحتفال بمرور سبعين عامًا علىٰ صداقتهم ويقترح بعضهم أنْ يحتفلوا بها في أماكن أخرىٰ، لكنّهم لا يستطيعون أن يقيموه إلا في "قشتمر" مما يؤكد ارتباطهم الوثيق به، وعدم استطاعتهم الابتعاد عنه، يقول الراوي: "وقال لنا صادق صفوان يومًا: أقترح أنْ نحتفل بمرور سبعين عامًا علىٰ صداقتنا الوطيدة.

وضمَمْنا الاقتراح إلىٰ صميم قلوبنا، وقال حمادة: لنحتفل به في خان الخليلي.

فقال طاهر عبيد: العوامة أفضل.

ولكن إسماعيل قدري قال: بل في قشتمر، فنحن وصداقتنا وقشتمر كلٌّ لا يتجزأ.

ووافقنا علىٰ ذلك دون تردُّد، وأملَىٰ المكان علىٰ الحفل بساطةً تُناسِب أعمارنا وصحتنا"(٢)

---

(١)السابق ص ١٤٢.

(٢)الرواية ص ١٤٧.

تتجلىٰ في النص السابق نوستالجيا المكان المغلق بوصفه وعاءً للذاكرة الجماعية، وعاملًا فعّالًا في الأحداث التي دارت في أرجائه، وحين يقترح "صادق" الاحتفال بمرور سبعين عامًا علىٰ صداقتهم، يرىٰ "حمادة" إقامة هذا الاحتفال في خان الخليلي بينما يرىٰ "طاهر عبيد" أن يكون الاحتفال في العوامة، ثم يأتي الحسم من "إسماعيل قدري" بأن يكون الاحتفال في "قشتمر" ليوافق الجميع دون تردد مما يُظهر مكانة "قشتمر" الكبيرة في نفوس الأصدقاء الذين ينتصرون له ليس لكونه مكانًا لاجتماعاتهم وتلاقيهم فقط، وإنما بصفته شريكًا لهم وحاضنًا لذكرياتهم، ومستودعًا لأسرارهم، فلم يستطع الأصدقاء الانتقال إلىٰ مكان سواه، ورأوا في إقامة الاحتفال فيه وفاءً له واعترافًا بفضله، ولم يخيب "قشتمر" آمالهم فأضفىٰ علىٰ الحفل جلالًا وبساطةً تُناسِب أعمارهم وصحتهم، وتتجسد في هذا النص النوستالجيا الجمعية للمكان بوصفه فضاءً شعوريًا، وبُعدًا وجوديًا حيث تجد فيه كل شخصية من الشخصيات حنينًا إلىٰ الذكريات والأحداث التي احتضنها "قشتمر".

المحور الثاني: نوستالجيا المكان المفتوح:

يُراد بالمكان المفتوح: تلك المساحات الهائلة التي توحي بالمجهول كالبحر والنهر أو المساحات المتوسطة كالحي حيث توحي بالألفة والمحبة، وفضاء هذه الأمكنة قد يكشف عن الصراع الدائم بين هذه الأمكنة كعناصر فنية وبين الإنسان الموجود فيها.(١)

وفي رواية "قشتمر" شكّلت منطقة العباسية وعاءً بارزًا لنوستالجيا المكان المفتوح فقد دفع التغيير الَّذي حلَّ بهذه المنطقة الراوي وأصدقاءه إلىٰ الحنين لمنطقة العباسية في صورتها الأولىٰ، التي وصفها الراوي وصفًا يدل علىٰ شغفه بها وإلمامه بجزئياتها، وحنينه الشديد لما كانت عليه، يقول الراوي: "العباسية في شبابها المنطوي، واحة في قلب صحراء مترامية، في شرقِيِّها تقوم السرايات كالقلاع، وفي غربيِّها تتجاور البيوت الصغيرة مزهوة بجدتها وحدائقها الخلفية، تكتنِفها من أكثر من ناحيةٍ حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكي، يشملها هدوء عذب، وسكينة سابغة لولا أزيز الترام الأبيض بين الحين والحين في مَسيرته الدائبة ما بين مصر الجديدة والعتبة الخضراء، ويهبُّ عليها هواء الصحراء الجاف، فيستعير من الحقول أطيابها، مُثيرًا في الصدور حبَّها المكنون"(٢)

يتجلَّىٰ في النص السابق جمال منطقة "العباسية" وروعة مناظرها مما جعلها قادرة علىٰ التأثير في نفوس قاطنيها فأكسبتهم نشاطا وحيوية، بل امتد تأثيرها إلىٰ عوامل الطبيعة الأخرىٰ، فهواء الصحراء الجاف ينحني لجمال هذه الطبيعة فيأخذ من الحقول أطيابها ليثير في الصدور حب المكان وعشقه، إنَّه حنين مستعر لهذه البقعة

(١) يُنظر جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه لمهدي عبيدي ص ٩٥.

(٢) الرواية ص ٥.

الخضراء وسط هذه الصحراء القاحلة، حيث كانت هذه البقعة في ماضيها تشبه المرأة في شبابها وريعانها، وقوله: "في شبابها المنطوي" يدل علىٰ أنها لم تعد كذلك بل طالتها يد المدنية الجافة التي حولتها من واحة غناء إلىٰ كتل خرسانية.

وتزداد النوستالجيا إلىٰ العباسية في صورتها الجميلة الأولىٰ مع كل تغيير يُضعفُ هذا الجمال يقول الراوي: "ومع الحرب هبَّت علىٰ حيِّنا رياح التغيير لا ممتعة ولا سارة، شُقَّ شارع طويل عريض بين شارع العباسية وشارع الملكة ناظلي، واخترق الحقل القديم الذي كنا بفضله نتمتع بجمال الريف بالإضافة إلىٰ حضارة المدينة، ورحل عمِّ إبراهيم وسكت نَعير الساقية، واختفت الخُضرة المُنعشة جارفةً معها الشفافية والعذوبة والروائح الزكية، وحلت محلها علىٰ جانبي الطريق الجديد خرابات قاحلة سرعان ما استُغلت لبيع نفايات الجيش البريطاني من السيارات الكهنة وتلال المطاط والأدوات الميكانيكية والبطاطين المُستهلَكة، لم نعُد نسمع إلا الدق وضوضاء الشارين وشِجار المتساوِمين، ولا نرىٰ إلا غبار عربات النقل، وفقد الشارع العمومي هدوءه، وجرت فوق سطحه عشرات اللوريات، وتضاعف عدد الترامات واكتظَّ بعُمَّال الأورنس، وانتشر الجنود حتىٰ في المقاهي البلدي، وبيعت جملة من سرايات العباسية الشرقية المطلة علىٰ الشارع العمومي، وشُرع في إقامة عمائر شاهقة في مكانها وأخذ يتمايل في الأفق منظرُ حيٍّ جديد مُكتظ بالسكَّان والدكاكين، ويطوي في نموه المتصاعد الحي القديم بسراياته المعدودة وبيوته الصغيرة الأنيقة وسكانه المعدودين الذين تربط بينهم روابط الأسرة الكبيرة الواحدة"[1]

(١)الرواية ص ٨١، ٨٢.

يكشف النص السابق عن التغيير الَّذي أحدثته الحرب في منطقة "العباسية" وهذا التغيير المقترن بالحرب يشير إلىٰ أنه تغيير قسري، وهو تغيير للأسوأ _ "وإن كان يحمل النفع في بعض مظاهره"_ فرضه المحتل كعادته حيث طمس الكثير من مكونات الطبيعة، فانزوت الخضرة الباعثة للهواء النقي، وانقطعت الروائح الزكية، وسكتت الساقية، ورحل الهدوء، وتحولت البيوت الصغيرة الأنيقة إلىٰ بنايات شاهقة وسادت الضوضاء وانتشر الغبار، وانتشرت الخرابات التي تجمعت فيها نفايات المُحتَل، وتحول المجتمع من مجتمع متماسك إلىٰ مجتمع مدني نفعي انقرضت فيه حياة الألفة والمودة وتقطعت فيه الروابط الاجتماعية، والحنين في النص السابق ليس حنينًا للمكان فحسب وإنما حنين إلىٰ إيقاع الحياة الهادئ.

وتمضي الأيام وتزداد المدنية توحشا لتقضي علىٰ ما تبقىٰ من مكونات الطبيعة، ويزداد الراوي وأصدقاؤه حنينًا إلىٰ المنطقة في صورتها المثالية الأولىٰ، يقول الراوي: "ذهبَت في أدراج التاريخ عباسية الزمان الأول، بالهدوء والخضرة والسرايات والترام الأبيض، وانتشرت العمائر، وقامت الدكاكين علىٰ الجانبَين، وفاض الحي بسكَّانه، واكتظت الشوارع بالصبية والسيارات الخاصة والعامة، إنه الزحام والضوضاء والأنفاس المُتلاطمة، ولكن لم يجرِ هجرها لأحدنا في خاطر" (١)

تتجلىٰ في النص السابق صورة المدنية بوجهها القبيح حيث حولت كل حسن جميل إلىٰ نقيضه القبيح فذهب الهدوء والخضرة والسرايات بجمالها وحدائقها الملحقة بها والترام وحلَّت العمائر والدكاكين والضوضاء والسيارات الخاصة، ومع كل هذه التغيرات لم يفكر الأصدقاء في ترك منطقتهم التي شكَّلت وجدانهم، وكانت

(١)الرواية ص ١١٢.

وعاء لأحداث حياتهم بل وجدوا أنفسهم في حنين شديد إلىٰ منطقتهم في صورتها البهية.

وتبلغ نوستالجيا المكان ذروتها حين تُطمس معالم العباسية الجميلة، وتستفحل المدنية بوجهها القاسي فيتساءل الراوي وأصدقاؤه في حسرة عمَّا أصاب المكان الَّذي تشكلت فيه ملامح طفولتهم، يقول الراوي: "العباسية القديمة هل بقيَ منها أثر؟ أين الحقول والحدائق؟ أين النخلة ومجلسها وغابة التين الشوكي؟ أين البيوت ذوات الحدائق الخلفية؟ أين السرايات والقلاع والهوانم؟ هل نرىٰ اليوم إلا غابات من الإسمنت المُسلح، مظاهرات من المركبات المجنونة؟ .. هل نسمع إلا الضجيج والضوضاء؟ هل تُحدق بنا إلا أكوام الزبالة؟!"(١)

تتجلىٰ نوستالجيا المكان في النص السابق في صورة تساؤلات استنكارية تكسوها الحسرة يسوقها الراوي الَّذي أزعجه هذا التغيير الموحش حيث طُمست ملامح المكان الجميل، واختفت مظاهر الطبيعة والهدوء، وحتىٰ طبقات المجتمع المعروفة برُقيّها ذهبت وحلَّت بنايات الإسمنت المسلح التي تشبه الغابات في ارتفاعها ووحشتها، وكثرت السيارات، وامتلأت الدنيا ضوضاء، وانتشرت أكوام القمامة، وقد دفع هذا التغيير القبيح الأصدقاء إلىٰ هذه التساؤلات وجعلهم في حنين دائم وشوق مستمر إلىٰ "العباسية" في صورتها الوضيئة.

ولا تتوقف نوستالجيا المكان المفتوح عند النظرة الشاملة للعباسية المترامية، وإنما تزداد عمقًا حين ينتقل الراوي إلىٰ وصف بعض الأماكن داخل العباسية التي احتضنت قدرًا كبيرًا من ذكرياتهم، وأحداث صباهم حيث كان يجتمع مع أصدقائه،

(١) الرواية ص ١٤٦، ١٤٧.

يقول الراوي: "قبل أن نهتدي إلىٰ قشتمر جمعتنا الشوارع وميدان المستشفىٰ والنخلة الرشيقة بحقل عمِّ إبراهيم المُمتد بين شارع مختار باشا من ناحية وبين الجنين من الناحية الأخرىٰ، تُطلُّ عليه الحدائق الخلفية لمساكن كثيرة في العباسية الغربية، ويُمِدُّنا بما نحتاج من خضر، في جنوبه تقع غابة التين الشوكي، وفي شماله ناحية الوايلية تدور الساقية التي ترويه وتنتشر حولها أشجار الحناء زافرةً شذاها الطيب في العطلات الأسبوعية والصيفية نجلس تحت النخلة المغروسة في وسطه، تسيل أفواهنا بالحقائق والأساطير"(١)

استطاع الراوي بهذا الوصف التفصيلي "ميدان المستشفىٰ، النخلة الرشيقة، حقل عمّ إبراهيم، غابة التين الشوكي، الساقية، أشجار الحنّاء" إعادة بناء المشهد المكاني في صورة بسيطة ولكنها ضافية الجمال، تجتمع فيها روعة المنظر مع عبق الهواء ونسيمه مكونة حضنًا دافئا لتلك الذكريات، لا شك أنَّ تلك الأمكنة لم تعد اليوم كصورتها الأولىٰ وإنما أصبحت جافة قاسية مما يعزز شعور الراوي بالنوستالجيا إلىٰ تلك الأماكن بصورتها الجميلة، ومن الواضح أنَّ الراوي لم يكتف في بنائه المشهد المكاني بأنْ يجعله حيزًا مكانيًا فحسب بل جعله وعاءً للذاكرة الجماعية، فهو لا يتحدث عن نفسه فقط بل عن نفسه ورفاقه الذين جمعتهم هذه الأماكن وشكّلت مراحل حياتهم، مما جعلهم جميعًا يشعرون بالحنين إلىٰ هذه الأماكن في صورتها الجميلة.

ومن خلال النصوص السابقة يمكن الوقوف على بواعث نوستالجيا المكان التي تمثلت في:

(١)الرواية ص ٦.

- تحول مقهىٰ "قشتمر" إلىٰ رمز للماضي، ووعاء لذكريات الأصدقاء وأحداث حياتهم.
- انقطاعهم مدة من الزمن عن "قشتمر" حينما قرر صاحبه تجديده.
- الأثر السيء للاحتلال الَّذي عمد إلىٰ تغيير وجه العباسية فملأها بمخلفاته.
- توحش المدنية الَّذي غير ملامح العباسية من واحة خضراء إلىٰ كتل خراسانية.
- الزحف السكاني الكثيف إلىٰ منطقة العباسية الَّذي نتج عنه كثرة الضوضاء والتفكك المجتمعي.

المبحث الثالث: نوستالجيا الزمان

يُعد الحنين إلىٰ الماضي ظاهرة نفسية تتداخل فيها الذاكرة مع الزمان، ويأخذ هذا الحنين بُعدًا مُميزًا في السرد الروائي يظهر من خلال إعادة بناء الزمن الروائي فيتحول الزمن الروائي إلىٰ فضاء للكشف عن صورة هذا الحنين.

والزمن الروائي هو: "نسج ينشأ عنه سحر، ينشأ عنه عالم، ينشأ عنه وجود، ينشأ عنه جمالية سحرية أو سحرية جمالية...فهو لحمة الحدث، وملح السرد، وصنو الحيز، وقِوام الشخصية"(١)

وللزمن دور كبير في بناء الرواية فهو بمثابة الإيقاع الّذي يضبط أحداث الحكاية والشاهد الحي علىٰ مصير شخصياتها، والعنصر الفعّال الّذي يغذي حركة الصراع الدرامي فيها.(٢)

واستطاع نجيب محفوظ الكشف عن نوستالجيا الزمان من خلال اعتماده علىٰ تقنية الاسترجاع.(٣)

وتنشأ نوستالجيا الزمان إثر التقلبات الزمانية التي تدفع الإنسان إلىٰ الحنين إلىٰ الزمن الجميل، وغالبًا ما يكون زمن الطفولة أو الشباب، أو السعادة والرخاء حيث يجد الإنسان في تذكر ذلك الزمن انفلاتا لنفسه المكلومة، ورواية "قشتمر" تعج بالحديث عن قسوة الزمن علىٰ شخصيات الرواية، التي وجدت في ماضيها انفلاتًا من

---

(١) في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد للدكتور/ عبد الملك مرتاض ص ٢٠٦.

(٢) يُنظر بناء الرواية دراسة في الرواية المصرية للدكتور/ عبد الفتاح عثمان ص ٥٤.

(٣) الاسترجاع: مفارقة زمنية تعيدنا إلىٰ الماضي بالنسبة للحظة الراهنة من خلال استعادة واقعة، أو وقائع حدثت قبل اللحظة الراهنة. يُنظر المصطلح السردي لجيرالد برنس ترجمة/ عابد خزندار ص ٢٥ –طبعة المجلس الأعلىٰ للثقافة– القاهرة– عام ٢٠٠٣ م.

قسوة الحاضر ومرارته، والزمان في رواية "قشتمر" ليس مجرد خط لتسلسل الأحداث، وإنما هو ملاذ وجدت فيه النفوس المكلومة مأوىٰ لها؛ وتظهر نوستالجيا الزمان بوضوح من خلال استدعاء الراوي زمن الطفولة المفعم بالحب والبراءة والنقاء، وكذلك استدعاء بعض اللحظات السعيدة، وسيكون حديثي عن نوستالجيا الزمن من خلال المحورين الآتيين:

المحور الأول: نوستالجيا الطفولة (زمن البراءة والنقاء):

يُعد زمن الطفولة-غالبًا- أفضل أزمنة الإنسان حيث يتشكل في ذاكرته خاليًا من شوائب الحياة ودنسها، ومع تقدم الإنسان في العمر تبدأ معالم طفولته في الانحسار والتواري بما تحمله من نقاء وبراءة ليتولد الحنين إلىٰ تلك المدة الزمنية البريئة، وشكلت مرحلة الطفولة في رواية "قشتمر" مركزا بارزًا للحنين، وينقل الراوي صورة من هذا الحنين فيقول علىٰ لسان "صادق" واصفًا وقت طفولته عندما كان يذهب إلىٰ زيارة ابن عم والده: "والباشا في غاية العظمة، وزبيدة هانم حرمه جميلة جمالًا لا قبله ولا بعده، وفي غاية الطيبة، يُحبُّون أبي وأمُي، كما لو أننا أغنياء مثلهم، ابنهم محمود أكبر منِّي بعامَين، أما أميرة ابنتهم فهي أجمل من زبيدة هانم .. كل شيء يجنن!"(١)

استطاع الراوي من خلال هذا الاستدعاء علىٰ لسان (صادق) أنْ يرسم لوحة نابضة بالنوستالجيا إلىٰ عالم مليء بالنقاء والأخلاق النبيلة، والأحلام البريئة، وقيم الطهر والحياء، وتجاوز الفروق الطبقية حيث يعيش الجميع مع اختلاف طبقاتهم في محبة وإخاء، إنها لحظات مفعمة بالمشاعر الصادقة، والسجايا الكريمة التي لاشك أنها لم تعد موجودة علىٰ تلك الصورة.

---

(١) الرواية ص ٧.

ويواصل الراوي استدعاء أوقات الصبا المليئة بالحب والبراءة بصورة مشبعة بالنوستالجيا، ليُعيد تشكيلها في صورة أشبه بالمثالية فيقول: "وتحت النخلة السامقة نلهو بشدِّ الحبل، والْتِهام أطباق الدندورمة المصنوعة من البسكوت، وتقليد المدرسين في أطوارهم الخارقة للمألوف، ولا نكون وحدَنا دائمًا؛ فقد ينضمُّ إلينا عشرة أو أكثر من أصدقاء الدرجة الثانية، فيهم نفر عُرفوا بطول اللسان أو الخشونة أو حُب العنف والأذىٰ، ولكنه يبقىٰ الأساس كنواةٍ صلبة لا يُسمح لغريبٍ باختراقها، ويدعونا صادق إلىٰ وليمة غداء فيُقدِّم لنا طعمية لذيذة وكفتة فاخرة وتشكيلة من السلطات ثم طبقًا من البرتقال اليافاوي وتُمطر السماء في جوٍّ باردٍ فنتأخَّر في بيته الصغير ببين الجناين حتىٰ العصر"(١)

تتجلىٰ في النص السابق صورة من صور النوستالجيا الجماعية إلىٰ الماضي حيث يتشارك الأطفال في صنع عالمهم الخاص الخالي من تعقيدات الكبار والمليء بالألعاب والدفء والبراءة حيث يلهون ويلعبون ويتناولون ما يتوفر لهم من طعام وهم في سعادة بالغة، وشكَّل الأصدقاء الخمسة كتلة صلبة في مواجهة غيرهم، وحينما تمطر السماء يشعرهم تجمعهم في بيت "صادق" بالدفء، إنها أوقات مفعمة بالحب والنقاء استمتعوا بها في الماضي، وباتوا يفتقدونها في الحاضر في ظل تلك الحياة التي أصبحت حياة جافة سريعة الحركة، ويُلحظ أن الراوي حينما استدعىٰ هذه الصورة من الماضي لم يقف كثيرًا عند شوائبها المتمثلة في عنف بعض الأصدقاء من خارج دائرتهم الضيقة المتماسكة، وإنما أشار إليها إشارة سريعة.

(١) الرواية ص ٨.

ويستمر الراوي في الحنين إلىٰ ماضي الطفولة من خلال استدعاء بعض أوقات الصبا حيث يجتمع الأصدقاء في براءة ونقاء، يقول الراوي: "نجلس فوق النجيل عند أصل النخلة، حمادة وطاهر يرتديان قميصًا وبنطلونًا قصيرًا، وصادق وإسماعيل في جلبابين عنايتنا بمظهرنا كاملة؛ حمادة وطاهر يمشطان شعرهما الطويل أما صادق وإسماعيل فيحلقان رأسيهما نمرة ٣، وبتأثير السينما شغلنا أنفسنا بتقوية أجسامنا وممارسة الألعاب الرياضية"[١]

يكشف النص السابق عن نوستالجيا الطفولة حيث الحنين إلىٰ تلك اللحظات الجميلة التي ما تزال محفورة في ذاكرة الأصدقاء رغم مرور سنين كثيرة عليها، وجمال هذه اللحظات هو الَّذي جعلها حاضرة في ذاكرتهم التي أعادت بناء هذه الذكريات الجميلة وقامت بتشكيلها في صورة خالية من الشوائب، وهذه العبارات تحمل بين طياتها براءة الطفولة، وصفاء العقول، ونقاء النفوس، وتدل علىٰ أنَّ هؤلاء الأصدقاء عاشوا زمان طفولتهم كما ينبغي ولذلك وجدوا في أنفسهم حنينًا دائما لتلك الطفولة.

(١)الرواية ص ٨.

المحور الثاني: نوستالجيا السعادة والرخاء:

تظل أوقات الفرح ولحظات السعادة محفورة في وجدان كل إنسان، وحينما تزداد ضغوط الحياة وتكثر الأحزان يشتاق الإنسان إلىٰ أوقات فرحه وسروره ليس هروبًا من الواقع فحسب وإنما رغبةً في استعادة التوازن النفسي من خلال إعادة بناء هذه الأوقات السعيدة في صورة تبعث الأمل والتفاؤل في النفس، واستطاع نجيب محفوظ أن يُبرز نوستالجيا السعادة والفرح في رواية "قشتمر" من خلال عدة مشاهد استعاد فيها تلك اللحظات السعيدة التي عاشها الراوي ورفاقه، ومن هذه المشاهد:

عندما نشر "طاهر عبيد" أولىٰ قصائده، يقول الراوي مصورًا هذا المشهد: "وطاهر عبيد أثارنا بشِعره قبل أن يُثيرنا بحُبه، فاجأنا بنشر أول قصيدة غزلية له في مجلة الفكر ظهرت القصيدة تحت عنوان الجميلات في الحديقة في مجلة عريقة، منتشرة ومعروفة بالدعوة لروح العصر والتقدُّمية، إنه تقدير بكل معنىٰ الكلمة، واهتزَّ ركن قشتمر سرورًا وطربًا، وقال حمادة: نحن نشهد ميلاد شاعر"[1]

تتبدىٰ في النص السابق نوستالجيا اللحظات السعيدة، حيث يستعيد الراوي لحظة معرفتهم واحتفائهم بنشر "طاهر" أولىٰ قصائده، وهم يرونه حدثًا عظيمًا فسعدوا بهذا الخبر سعادة بالغة، عبّر عنها الراوي بقوله: "واهتزَّ ركن قشتمر سرورًا وطربًا" حيث بلغت السعادة ذروتها عند الأصدقاء فاهتزوا لها سرورًا وطربًا، وتتقاطع نوستالجيا السعادة مع نوستالجيا الشباب والزمان عمومًا إذ يحمل النص أيضًا حنينًا إلىٰ تلك المدة الزمنية التي كان للمجلات الأدبية فيها قيمة ومنزلة، وكان للأدباء قدْرٌ ومكانة حتىٰ وهم في بداية حياتهم الأدبية، ولا يخفىٰ حنين الراوي إلىٰ هذا الزمن

(١) الرواية ص ٣٨.

الَّذي كان يسوده الترابط بين الأصدقاء، وتجلّت نوستالجيا الزمان في هذا النص من خلال استرجاع الراوي تلك اللحظات السعيدة المثالية التي لم تعُد متاحَة اليوم.

ويصور الراوي حنين "طاهر" إلىٰ زمانه الماضي فيقول: "وغلب علىٰ طاهر تذكُّر ماضيه المضيء في ظل حاضره فتضاعف همُّه وقلقه، وبدا كأنه يفيق من سحرٍ عشقه وأنه لا يجد في قبضته إلا هواء، وفي ذات ليلة اعترف لنا بصراحته المعهودة قائلًا: انتهىٰ صاحبكم!"(١)

تتجلىٰ نوستالجيا الزمان في هذا النص القصير في صورة ذلك الإحساس الوجودي الَّذي يُسيطر علىٰ "طاهر" حين يستحضر الماضي في صورته المثالية "ماضيه المضيء"، متناسيًا ما شاب هذا الماضي من الحزن، ويتمثل جمال هذا الماضي في شباب "طاهر" وحيويته ومكانته الأدبية وذيوع صيته، بينما تتمثل قسوة الحاضر في عزله من رئاسة تحرير مجلة الفكر، وحتىٰ عندما امتنع عن الكتابة لم يهتم به أحد، بل واختفت قصائده التي كان ينشدها في حب الثورة والزعيم "جمال عبد الناصر" وحتىٰ زوجته "أنوار" بدأت في التمرد عليه حين قَبِلَ تأليف الأغاني لمسارح القطاع الخاص، كل ذلك جعل "طاهر" يفر إلىٰ هذا الماضي في صورته المثالية هاربًا من حاضره الَّذي قسا عليه بشدة.

وتستمر نوستالجيا الزمان السعيد في السيطرة علىٰ وجدان الراوي فيصور حنينه ورفاقه إلىٰ تلك اللحظات السعيدة والفارقة في تاريخ مصر حين قامت ثورة يوليو المجيدة طاوية عهودا من الاستعمار والذل، يقول الراوي: "ونحن علىٰ حالٍ كئيبة من المرارة والسخرية والتقزُّز، هلَّ علينا يوم ٢٣ يوليو كالسحر المُبين، شملتنا

(١)الرواية ص ١٣٧.

صحوة طاغية وتتابعت الحوادث كالأحلام، فرحل الملك والإقطاع والألقاب، وبرز الفقراء والضائعون من القاع فتربعوا علىٰ العرش، وأصبح كل مُستحيلٍ مُمكنًا، ولم يعُد لنا من حديثٍ في رُكننا العتيد بقشتمر إلا حديث الحركة المبارك"[1]

يستدعي الراوي في النص السابق حالة من النوستالجيا الجماعية لمدة زمنية عظيمة شهدت عودة الوطن إلىٰ أبنائه حيث رحل الملك وأعوانه وأذنابه وألقابهم، وتولىٰ الفقراء من أبناء الوطن زمام الحكم، لقد كانت لحظات فارقة تُنبئ بمستقبل سعيد مُشرق، وبدا للراوي ورفاقه أنَّ كل شيء بات ممكنًا، وأنَّ فجرًا جديدًا بزغ علىٰ أبناء مصر الذين ضحوا كثيرًا حتىٰ وصلوا إلىٰ تلك اللحظات الفارقة التي لم تكن متوقعة، والتي تحول فيها اليأس إلىٰ أمل، والفقراء الضائعون إلىٰ حُكّام، وظل "قشتمر" كعادته شريكًا يحفظ هذه الذكريات الجميلة.

ومضت الثورة المجيدة بعدما أعادت الوطن إلىٰ أبنائه في بناء وطن قوي، وتحقيق العدالة بين أفراده وطبقاته، فصدر قانون الإصلاح الزراعي وغيره من القوانين ففرح أغلب الشعب بذلك بينما حزن الأغنياء والإقطاعيون وباتوا يشتاقون إلىٰ الزمان الماضي، وسيطر الخوف من المستقبل علىٰ "صادق"، وازداد حنينه إلىٰ الماضي الَّذي وجد فيه الأمان علىٰ نفسه وأمواله، يقول الراوي: "وما زال صادق صفوان يُكابد القلق الذي يأبىٰ أن يفارقه، وشدَّ ما جزع لِما حلّ بأسُرة الزين باشا، فقد التهم الإصلاح الزراعي الجزء الأكبر من أراضي زبيدة هانم، كما توقف نشاط الزين في البورصة، ولم يعُد للأسرة من موردٍ إلا الإيجار المُتبقي من الأرض الذي ضمر أيضًا بحكم القوانين الجديدة، وحتىٰ ابنه محمود استقال من السلك السياسي وأقام في

(١)الرواية ص ١٠٥.

إنجلترا مهاجرًا أبديًّا، ويقول صادق: لستُ من الإقطاعيين ولكنني من ذوي الأملاك، وقد يأتي دَورنا، ألا ترَون أن الثورة عدوٌّ سافر للناجحين؟!

دائمًا وأبدًا يشعر بأنه مُطارَد، وأصبح في حيرة وأي حيرة من أرباحه المتصاعدة فيقول: لا أدري ماذا أفعل بمُدخراتي، من الحماقة أن أستثمرها في البناء، ومن الغباء أن أودِعها في البنوك، ومن الجنون أن أبْقيها في بيتي!"(١)

تتجلىٰ في هذا النص نوستالجيا الزمان متقاطعة مع الخوف فـ "صادق" يُعاني من صراع داخلي خوفًا مما قد يلحقه من أذىٰ مُستَحضِرًا في ذهنه صورة أسرة "الزين باشا" التي تُعد رمزًا لانهيار تلك الطبقة الاجتماعية التي كانت تسيطر علىٰ مقدرات الوطن آنذاك، ومع أنَّ "صادقًا" ليس من طبقة الإقطاعيين لكنه من ذوي الأملاك ولذلك يشعر بأزمة شديدة جعلته يحِن إلىٰ ماضيه السعيد الخالي من الخوف والقلق علىٰ ثروته التي كوَّنها بمجهود كبير، وكأنه وجد في هذا الحنين ملاذا مؤقتًا من الخوف الَّذي أحاط به.

ويستمر الراوي في الكشف عن وجوه النوستالجيا الزمانية من خلال رصده ظاهرة جديدة لم تكن موجودة من قبل، حيث يواجه "طاهر عبيد" صعوبة في الحصول علىٰ شقة يسكن فيها مع زوجته الجديدة "أنوار" يقول الراوي: "وواجهته — وهو يبحث عن عش الزوجية الجديد — مشكلة لم نعرفها في زماننا الأول وهي العثور علىٰ شقة، ولكن حلها لم يكن مُستعصيًا، فبعد تعبٍ غير قليل وجد شقةً في الجيزة بإيجار حديث مرتفع وبلا خلو"(٢)

---

(١) الرواية ص ١٠٦.

(٢) السابق ص ١٣٥.

يشير الراوي في هذا النص إلىٰ مشكلة لم يكونوا يعرفونها في زمانهم الماضي، وإنما عرفوها في زمانهم الحاضر حينما وجد "طاهر" معاناة في حصوله علىٰ شقة تؤويه وزوجته الجديدة، وهو شعور مرير بالفقد التدريجي لأساسيات الحياة، وفيه استشراف بأنَّ المستقبل سيكون أكثر قسوة وضراوة مما دفع الراوي ورفاقه إلىٰ الحنين لزمانهم الماضي حيث كانت الحياة أكثر بساطة وأقل تعقيدًا، وتجلّىٰ في هذا النص حضور كثيف لنوستالجيا الزمان السعيد حيث وجد الراوي ورفاقه في هذا الحنين متنفسًا لأحزانهم، ومهربًا من واقعهم القاسي.

وتصل نوستالجيا الزمان ذروتها حينما يشعر الأصدقاء بحنين دفين إلىٰ ماضيهم في صورته المثالية رغم علمهم بما كان فيه من سلبيات، يقول الراوي: "كلما ضنَّ الحاضر بنبأ يَسُرُّ هُرعنا إلىٰ الماضي نقطف من ثماره الغائبة نفعل ذلك رغم وَعِينا بما فيه من خداعٍ وكذب، وعلمًا بما أترع به الماضي من سلبياتٍ وآلام ولكننا لا نستطيع أن نردَّ النفس عن الاستمتاع بذلك المورد المليء بالسحر والسراب"(١)

عندما يُخيّب الحاضر الآمال يشكّل الماضي ملاذا نفسيا آمنًا يلجأ إليه الشخص مع علمه بزيف هذا الشعور، وإقراره بالسلبيات التي كانت موجودة فيه، والنَّص السابق تتجلىٰ فيه نوستالجيا الزمان التي تسيطر علىٰ الراوي وأصدقائه رغم علمهم بما كان فيه من سلبيات، ومع ذلك يطلقون العنان لأنفسهم لتقطف من ثمار الماضي الغائبة، إنها قسوة الحاضر وشدته التي دفعتهم إلىٰ الهروب إلىٰ ماضيهم.

يتضح لنا من خلال النصوص السابقة بواعث نوستالجيا الزمان، التي يمكن تلخيصها فيما يأتي:

---

(١) الرواية ص ١٤٧.

- التطور البيولوجي الطبيعي الَّذي مرت به شخصيات الرواية فقد كانوا أطفالًا ثم أصبحوا شبابًا ثم شيوخًا، ودفعهم هذا إلىٰ الحنين لمرحلة الصبا.
- افتقاد السعادة في الوقت الحاضر مما دفع الشخصيات إلىٰ نوستالجيا الأوقات السعيدة.
- وجود مراحل مضيئة في تاريخ الوطن وتمثل ذلك في ثورة ٢٣ يوليو التي شكَّلت مركزًا لنوستالجيا شخصيات الرواية.

الخاتمة

الحمد لله علىٰ ما أنعم، وله الشكر علىٰ ما ألهم ويسر، والصلاة والسلام علىٰ النبي الأكرم سيدنا محمد -ﷺ- وعلىٰ صحبه وآله ومن والاه.

أما بعد،،،،

فبتوفيق من الله وفضل انتهيت من بحثي هذا الَّذي درست فيه النوستالجيا في رواية "قشتمر" لنجيب محفوظ، وتناولت في هذا البحث مفهوم النوستالجيا، وبواعثها، والفرق بينها وبين الحنين، وتحدثت -بإيجاز- عن نجيب محفوظ، وذكرت ملخصًا للرواية، وتناولت في المبحث الأول نوستالجيا الشخصيات، وفي المبحث الثاني نوستالجيا المكان، وفي المبحث الثالث نوستالجيا الزمان، وخلُصت الدراسة إلىٰ عدة نتائج أبرزها:

- مثَّلت النوستالجيا ملاذًا نفسيًا لجأت إليه شخصيات الرواية هربًا من قسوة الواقع ومرارته.
- شكَّل المكان في الرواية وعاءً للذاكرة الجمعية، وساعد في تشكيل وجدان الشخصيات.
- التقاطع بين أنماط النوستالجيا المختلفة حيث تداخلت في بعض النصوص نوستالجيا الشخصيات مع المكان والزمان.
- تنوع أنماط النوستالجيا في الرواية بين الفردية والجماعية.
- شكَّلت النوستالجيا في رواية "قشتمر" البنية السردية الأساسية من خلال اعتماد الراوي علىٰ تقنية السرد الاسترجاعي.

فهرس المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع:

- **بناء الرواية دراسة في الرواية المصرية** للدكتور/ عبد الفتاح عثمان – طبعة مكتبة الشباب–القاهرة– عام ١٩٨٢ م.
- **بناء الرواية** للدكتورة/ سيزا قاسم –مكتبة الأسرة– القاهرة– ٢٠٠٤ م.
- **جماليات السرد في الخطاب الروائي** –غسان كنفاني– د/ صبيحة عودة عزب – طبعة دار مجدلاوي للنشر والتوزيع– عمان– الأردن– عام ٢٠٠٦ م.
- **جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه لمهدي عبيدي** –طبعة الهيئة العامة السورية للكتاب– دمشق– ٢٠١١ م.
- **جماليات النص السردي رؤية نقدية في أعمال أمين يوسف غراب** للدكتور/ عادل نيل–طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب– عام ٢٠١٥ م.
- **دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان**، للدكتور/ قادة عقاق –طبعة اتحاد الكتّاب العرب– دمشق– عام ٢٠٠١ م.
- **دليل الناقد الأدبي** للدكتور/ ميجان الرويلي والدكتور/ سعد البازعي – طبعة المركز الثقافي العربي– المغرب– الطبعة الثالثة– عام ٢٠٠٢ م.
- **صفحات من مذكرات نجيب محفوظ** لرجاء النقاش– طبعة دار الشروق– ١٩٩٧ م.
- **صورة المجتمع المصري في أدب نجيب محفوظ بين الواقع والخيال** للدكتور/ يحيىٰ القفاص– طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب– عام ٢٠١٧ م.
- **الفن القصصي بين جيلي طه حسين ونجيب محفوظ** للدكتور يوسف نوفل– طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب– ١٩٨٨ م.
- **في حب نجيب محفوظ لرجاء النقاش** –طبعة دار الشروق– الطبعة الأولىٰ ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م.

• في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد للدكتور/ عبد الملك مرتاض –طبعة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- ١٩٩٨ م.

• قراءة الرواية – مدخل إلى تقنيات التفسير - روجر. ب. هينكل ترجمة د/ صلاح رزق- طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة – الطبعة الثانية- عام ١٩٩٩م.

• قشتمر لنجيب محفوظ –طبعة دار الشروق-الطبعة الأولىٰ-عام ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦ م.

• المصطلح السردي لجيرالد برنس ترجمة/ عابد خزندار –طبعة المجلس الأعلىٰ للثقافة- القاهرة- عام ٢٠٠٣م.

• معجم مصطلحات الطب النفسي إعداد الدكتور/ لطفي الشربيني – طبعة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي- دون ذكر رقم الطبعة وسنة الطباعة.

• ملامح النوستالجيا في شعر أسامة بن منقذ للدكتورة/ هبة مصطفىٰ جابر، والدكتور/ علي عودة السواعير بحث منشور في مجلة جامعة تبوك للعلوم الإنسانية والاجتماعية- العدد الأول- المجلد الرابع- عام ٢٠٢٤ م.

• المورد الحديث قاموس إنكليزي عربي حديث لمنير البعلبكي، والدكتور/ رمزي منير البعلبكي –طبعة دار العلم للملايين- لبنان-.

• نظرية الرواية في الأدب الإنجليزي الحديث - مجموعة نقاد - ترجمة الدكتور/ أنجيل بطرس سمعان –طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب- عام ١٩٩٤ م.

• النوستالجيا الأندلسية: مقاربة في حفريات المصطلح وتمظهرات الأنا في مرآة ماضيها للدكتور/ مكي سعد الله –مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية- المركز العربي للأبحاث- العدد ٤٨ - المجلد ١٢ - ٢٠٢٤ م.

• الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيوثقافية للدكتورة/ هويدا صالح – طبعة رؤية للنشر والتوزيع– القاهرة– الطبعة الأولىٰ ٢٠١٥ م.

ثانيًا: المقالات:

• إعادة إحياء مقهىٰ "قشتمر" للصحفية رضوىٰ فاروق –مقال منشور في جريدة المصري اليوم بعنوان – العدد ٦٨١٨ الصادر في يوم الاثنين الموافق ١٣/ ٢/ ٢٠٢٣م.

• نوستالجيا للدكتور/ عبد الرحمن النملة مقال منشور في مجلة فكر –العدد ٣٠– يناير ٢٠٢١ م.

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــــوع	الصفحة
١.	ملخص	٢١٠٤
٢.	مقدمة	٢١٠٨
٣.	تمهيد	٢١١٢
٤.	المحور الأول: النوستالجيا: المفهوم والبواعث	٢١١٢
٥.	المحور الثاني: نبذة عن نجيب محفوظ	٢١١٧
٦.	المحور الثالث: ملخص الرواية	٢١٢٠
٧.	المبحث الأول: **نوستالجيا الشخصيات**	٢١٢٤
٨.	المبحث الثاني: **نوستالجيا المكان**	٢١٤٥
٩.	المبحث الثالث: **نوستالجيا الزمان**	٢١٥٩
١٠.	خاتمة	٢١٦٩
١١.	فهرس المصادر والمراجع	٢١٧٠
١٢.	فهرس الموضوعات	٢١٧٣